دراسات قومية

العدد العاشر

جنوب السودان
بحر الغزال
بين العصابات والحكومات
من ١٨٥٠م إلى ١٩٢٠م

للكاتب السوداني

التيجاني عامر

دراسات قومية

العدد العاشر

جنوب السودان
بحر الغزال
بين العصابات والحكومات
من ١٨٥٠م إلى ١٩٢٠ م

للكاتب السوداني

التيجاني عامر

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب الذى اقدمه بهذه السطور للقراء الكرام من المهتمين بتاريخ السودان يعالج جانبا كبيرا وهاما من تاريخ مديرية بحر الغزال بحدودها الجغرافية الأولى قبل ان تقتطع منها منطقة الزاندى فى عام ١٩٣٥ وقبل ان تقسم كما هى الآن الى مديريتين هما بحر الغزال والبحيرات .

ونستطيع ان نحدد المرحلة الزمنية التى تدور فيها موضوعات الكتاب بالفترة من تاريخ الحكم التركى المصرى الى نهاية الحرب العظمى العالمية الأولى « ١٩١٤ / ١٩١٨ م » وهى مرحلة الحكم الثنائى « الانجليزى المصرى » .

ومع هذا التحديد الزمنى فان القارىء لن يخطىء ملاحظة ان منطقة بحر الغزال لم تدخل فى اطار خريطة السودان بطريقة عملية تحت الحكم التركى المصرى إلا فى عهد الخديوى اسماعيل « ١٨٦٣ / ١٨٧٩ م » وعندما فرض الزبير باشا رحمة منصور نفسه مديرا عليها باسم الخديوى ووضع الحكومة تحت امر واقع اقرته به على ادارة بحر الغزال ومنحه الخديوى لقب « بك » .

ومديرية بحر الغزال القديمة تعتبر بالنسبة لجنوب السودان منطقة غنية بالأحداث التاريخية المثيرة لأن موقعها الجغرافى على حدود مع مستعمرات فرنسا والكونغو البلچيكى من الغرب والجنوب الغربى والمناطق العربية من الشمال والشمال الغربى يجعلها مستهدفة للهجوم والغزو الأجنبى حسب الظروف السياسية والعسكرية .

وقد بلغ من أهمية بحر الغزال فى التاريخ انها فى مرحلة احتلال الفرنسيين إبان المهدية فى السودان قد كادت ان تكون سببا فى اشعال الحرب فى اوربا

بين الانجليز والفرنسيين على اثر نزاع بلغ حد التوتر بشان « حادث فاشودة » والمواجهة العسكرية التى حدثت بين « اللورد كتشنر والكولونيل مارشاند » فى فاشودة « عاصمة اعالى النيل قبل ان تسمى كدوك » .

ووجود فاشودة فى اعالى النيل لا يعنى ان النزاع كان بشانها هى كمنطقة شلك على ضفة النيل الغربية ولكن حقيقة النزاع كان عن احتلال بحر الغزال فى الداخل وقد اراد الفرنسيون ان تكون لهم واجهة على النيل الابيض فكان احتلال مارشان المؤقت لفاشودة وصارت تحمل اسم الحدث التاريخى الذى ستجدون تفاصيله الدقيقة فى فصل كبير من هذا الكتاب مدعم بالوثائق والاتفاقيات وتوقيتها سواء حدثت فى لندن أو باريس أو القاهرة أو الخرطوم .

ولأن منطقة بحر الغزال الواسعة بما فيها اقليم الزاندى الذى الحق بالمديرية الاستوائية فى عام ١٩٣٥ على يد الادارة البريطانية تعتبر منطقة خيرات عظيمة ووفيرة بما حبتها به الطبيعة من كل نوع مثل سن الفيل وريش النعام والصيد والجلود والمحاصيل والاخشاب الجيدة النادرة وعسل النحل والطيور الفريدة ، فان انظار التجار المغامرين من العالم الخارجى قد تركزت عليها فى نوع التجارة المسلحة بعصابات مختلفة تمارس الحرب على السلب والنهب ضد بعضها البعض اوضد القبائل التى تقاوم لتحمى ذمارها .

ولقد كان هذا الثراء الطبيعى يضاف اليه ثروات باطن الارض من الحديد والنحاس والذهب مغريا لمستعمرى دول غرب اوربا الذين جابوا اعماق افريقيا وتسابقوا على استعمار اهلها وارضها . كان وضعها هذا مع تنافس كل من فرنسا وبلجيكا وبريطانيا على وضع ايديهم عليها الدافع القوى الذى حفزنى لمحاولة تسجيل تاريخها فى هذا الكتاب بعد معاناة مضنية وراء المراجع وجهود مكثفة فى تحقيق الاحداث صغيرها وكبيرها هادفا بذلك الى اخراج كتاب محقق لبنى وطنى باللغة العربية لانى اكتشفت ان كل ما كتب بتفصيل عن بحر الغزال كان باللغة الانجليزية وان كل ما جاء بالعربية فى بعض كتب التاريخ انما كان فصولا قصيرة متصلة بحادث معين أو آخر .
وسيكون من النفع العام لابناء الاقليم الجنوبى ان يترجم هذا الكتاب للانجليزية لتنتشر معلوماته .

ومع انى قد عشت فى بحر الغزال « واو » كموظف حكومة فى فترة مبكرة تمكنت خلالها من زيارة كل انحاء بحر الغزال وجمع المعلومات منها والتعرف على كل قبائلها ثم زرتها مرارا بعد ذلك فى مهمات رسمية كانت طبيعتها الطواف بالمراكز ، مع تلك الصلة الوثيقة فاننى قد بذلت جهدا كبيرا للحصول على وثائق ومعلومات رسمية وجدت بعضها فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ودار الكتب التركية باسطنبول وجامعة درهام ببريطانيا ومكتبة جامعة اكسفورد ودار الوثائق البريطانية بلندن ومكتبة المجلس البريطانى بلندن وغيرها .

ومع كل هذا الجهد والعناء فانى لا أدعى الاحاطة الكاملة بتاريخ تلك المنطقة خاليا من نقص هنا وهناك والكمال لله وحده . ولكن الذى يمكن ان ادعيه بثقة وتاكيد هو ان ما طرحته هنا منسوبا لمصادره التى استعنت بها صحيح وموثوق به .

ولان قبائل بحر الغزال بطبيعة اهلها الاجتماعية تنبثق منها قبائل فرعية كثيرة جدا ولها تسميات مختلفة لفروع صغيرة جدا تتكون من بضع اسر . فان احصاءنا للقبائل باسمائها خصوصا فى غرب بحر الغزال لابد ان يكون ناقصا بعدد ضئيل من فروع القبائل التى لا وزن لها ولا يضير قراء هذا الكتاب الجهل ببعضها لعدم اهميتها .

عنوان الكتاب :

لابد لى هنا من تفسير بسيط لما يشير اليه عنوان الكتاب « بحر الغزال بين العصابات والحكومات » لان هذا الاقليم هو الوحيد الذى تعرض بحكم وضعه الجغرافى فى القرن الماضى للرزوح تحت سيطرة عدة انماط من الحكم بدأت بسيطرة الاقوى من القبائل على الأضعف ثم سيطرة عصابات تجار الرقيق ثم سيطرة الحكم المصرى التركى ثم غزو المهدية وسيطرتها ثم عودة نفوذ العصابات والقبائل ثم اقتحام بلجيكا للاقليم من اقصى جنوبه الغربى الى اقصى شماله الغربى ثم زحف القوات الفرنسية من افريقيا الوسطى عن طريق دار الزاندى واستعمار بحر الغزال بسيطرة امتدت الى حوض النيل الابيض عند ملتقى نهر سوباط به وهناك حدثت قصة فاشودة التى كادت ان

تشعل حربا بين بريطانيا وفرنسا فى اوربا وانتصرت بريطانيا دبلوماسيا بدعوى وكالتها عن حقوق مصر فى ارض السودان مما سيجده القارىء بتفصيل فى باب مستقل من الكتاب .

وانتهت تقلبات السلطة على بحر الغزال بالفتح المصرى الانجليزى عام ١٨٩٨ ولكن السيطرة عليه لم تتم بوضع السلاح إلا فى ١٩٠٥ فصارت « واو » عاصمة للمديرية .

شكر وامتنان :

وفى ختام هذه المقدمة ارجو مخلصا ان اقدم اوفر الشكر واجزله للأخ الرئيس جعفر محمد نميرى لاهتمامه الشخصى بتسجيل تاريخ السودان ولتشجيعه المقدر لشخصى حين منحنى وسام الدولة الذهبى للآداب والعلوم والفنون فى المهرجان الثقافى لعام ١٩٧٧ تقديرا لما سبق ان اخرجت من كتب عن تاريخ السودان .

كما ارجو ان اتقدم بالشكر ايضا « للمجلس البريطانى » على منحته المقدرة ببعثة الى لندن حيث استطعت ان اجمع كثيرا من شتات المعلومات التى حواها الكتاب من مصادرها المحفوظة بدار الوثائق البريطانية وجامعات درهام واكسفورد وغيرها . كما اخص بالشكر الجنرال السير رونالد ونجت الذى استضافنى بمنزله الريفى فى « سلسبرى » واطلعنى على كثير من مخلفات والده الذى حكم السودان من عام ١٨٩٩ الى ١٩١٦ وهى مرحلة بناء السودان الحديث .

والشكر ايضا للصديق الفيلسوف البروفسور ريتشارد هل الذى اصدر عدة كتب لعونه لى فى اكسفورد بما لم يستطع ان يعيننى به غيره .

واخيرا الشكر لدار الوثائق المركزية بالسودان ودار الوثائق المركزية ومكتبتها بالقاهرة على ما ظفرت به منهما من معلومات ذات قيمة .

غرة رمضان عام ١٣٩٩

٢٦ يوليو عام ١٩٧٩

المؤلف

الفصل الأول

جغرافية وطبيعة بحر الغزال

جغرافية وطبيعة بحر الغزال

الاقليم الذى نؤرخ له هنا نحدده بالحدود الرسمية لمديرية بحر الغـزال على الوضع الذى ظهر فى الخرائط فى بداية الحكم الثنائى بعد عام ١٨٩٨ م وقـد كانت كل منطقة الزاندى فى جنوب الاقليم من بين اعمال بحـر الغـزال وليس المديرية الاستوائية كما هو الحال الآن ولذلك فان تسجيلنا لتاريخ بحر الغزال يشتمل على كل المشاكل والنزاعات التى حـدثت فى دار الزاندى وهـى كمـا سيرى القراء احداث كبيرة وهامة .

والواقع ان وضع دار الزاندى من ضمن اقاليم بحر الغزال لم يكن قد حدث مع سلطة الحكم الثنائى ولكنه كان كذلك منذ ايام الحـكم التركى المصرى ثم المهدية ثم الى مدى طويل ابان الحكم الثنائى قبل ان تنسلخ من بحر الغـزال وتضم الى المديرية الاستوائية بعد جلاء الاسـتعمار البلجيكى فى عام ١٩١٠ والذى كان يستولى على قطاع كبير من المديريتين الاستوائية وبحر الغـزال بما كان يسمى « اقليم اللادو » .

ومديرية بحر الغزال تقع فى اقصى الجنوب الغربى للسودان ومساحتها تبلغ نحو ١٢٦٢٩٠ ميل مربع وهى مـا يسـاوى مسـاحة ايطـاليا وبلجيكا مندمجتين .

وحدود المديرية من الناحية الشمالية تتاخم دارفور وكردفان كما تتاخم من الشرق مديريتى الاستوائية واعالى النيل . ومن الجنوب تلتقى مع زائير كمـا تلتقى مع افريقيا الوسطى .

طبيعة الأرض :

ترتفع ارض بحر الغزال تدريجيا تجاه الجنوب والغـرب وتتضـح معـالم الأودية والنهيرات بعد تجاوز منطقـة المسـتنقعات وتتعـالى الحجـارة (القرانيت) احيانا الى ارتفـاع ٤٠٠ قـدم وتتعـدد احيانا عند المنحـدرات العالية . وفى كثير من الأحيان تجد الحجارة الحديدية والكرستلين تحت طبقة خفيفة من التراب السطحى . ومع ذلك فـان منخفض الانحـدارات وقـواعد الأودية والخيران يشكل ارضا بالغة الخصـوبة والقـابلية للانتاج الزراعى .

وهى - اى التربة - من نوع نحاسى اللون مخلوط بجانب من الرمال الخفيفة .

وتتميز مديرية بحر الغزال بالغابات الكثيفة ذات الأشجار الضخمة التى تملأ كل جنبات المديرية ما عدا منخفضات الأحراش والمستنقعات . وطبيعة ارض بحر الغزال من النوع الذى حوى كل مظاهر الطبيعة الجيدة إذ تتعدد بها البحيرات والمياه المتجمعة وتكثر بها النهيرات التى تكون شبكات مائية عديدة بعضها دائم وبعضها موسمى مؤقت .

وفوق هذا وذاك نجد فى بحر الغزال الجبال والهضبات الصخرية فى اماكن متعددة تحفها الغابات الكثيفة .

الطقس :

فى الجزء الشمالى من بحر الغزال تهطل الأمطار فى نهاية مايو وتنتهى بنهاية اكتوبر او منتصف نوفمبر من كل عام . اما الجزء الجنوبى من المديرية فان امطاره تهطل يوميا تقريبا من مارس الى نهاية نوفمبر .

وقد اشتهرت بحر الغزال بقوة الصواعق الرعدية التى كثيرا ما يكون لها ضحايا من الناس والحيوان والمتاع وتعزى قوة الصواعق الى كثرة المواد الحديدية فى ارضها .

وطقس المديرية بوجه عام يعتبر مناسبا وصحيا فى مواسم الجفاف « الصيف » بين نوفمبر ومارس ولكنه شديد الرطوبة عند نزول الأمطار وتصل درجة الحرارة فى الظل ٩٨ بحد ادنى يصل الى ٥٩ درجة فهرنهايت وفى الخريف بين ابريل ويونيو يكون المتوسط ٨٩ درجة ومن يولية الى ديسمبر ٨٥ درجة ويصل الحد الادنى الى ٧٠ درجة .

الثروة الحيوانية :

الأغلبية العظمى لسكان بحر الغزال هم قبيلة الدينكا فى كل مراكز رمبيك ويرول والتونج والمشرع وقوقريال واويل ومركز واو . وهم جميعا يعملون فى تربية الماشية من ابقار واغنام بالأسلوب التقليدى الموروث ولكن الأبقار هى الاكثر عددا واهم قيمة .

وبالاضافة للدينكا فان بعض صغرى القبائل ترعى الأبقار والأغنام فى حدود اقل بالنسبة للدينكا . والابقار لا تمثل عند الدينكا مجرد ثروة حيوانية متداولة بطريقة فردية او قومية ولكنها ايضا ذات اهمية روحية واجتماعية كبرى إذ يتعاملون بها ويتقاضون ويدفعون بها الغرامات والضرائب والدية والفدية والزواج والطلاق وكل ما الى ذلك من مطالب مجتمع الدينكا .

وحتى الأهمية الاجتماعية بالنسبة للفرد أو الأسرة تقدر بحساب البقر وحده إذ ليس هنالك منافسات ثقافية او زراعية او صناعية .

ولأن معظم الدينكا لا يبيعون ابقارهم لقضاء أوطارهم وحاجياتهم الضرورية من الأسواق ، فانهم يعتمدون فى ذلك على بيع الأغنام والدجاج لشراء لوازمهم ولهذا فان اعداد الأبقار تتضاعف بكثرة ولكنها من آن لآخر تصيبها الأمراض الوافدة ويتقلص عددها وهكذا .

الصيد والحيوانات البرية والمائية :

وتعتبر بحر الغزال من اغنى مديريات السودان بالحيوانات البرية والمائية وانواع الصيد والطيور والزواحف ولنذكر بعضها فيما يأتى :

الحيوان	اماكن وجوده
الأفيال	توجد فى معظم مناطق المديرية
الخرتيت الأسود	يكثر وجوده بجنوب بحر الغزال
الزراف	يوجد بكثرة فى كل الجهات
الجاموس	يوجد بكثرة فى كل الجهات
تبانج	يوجد فى كل المناطق المكشوفة من الغابات
تيتل اصفر	يوجد بكثرة عامة
كتمبور	يوجد بكثرة حول موارد المياه
حمراية يوغندا	يوجد بكثرة حول موارد المياه
الغزال الغطاس	يوجد بندرة حول موارد المياه
باشمات	نادر الوجود
ابو عرف	موجود بكثرة عامة
ستتونجه	فى مستنقعات نهر الجور

ابو نباح	كثيرة حول الأنهار والبحيرات
غزال مور	موجود بكثرة
دقدق	ليست كثيرة الانتشار
دقدق اخضر	فى جنوب المديرية
فرس البحر	فى كل الانهار الكبيرة
الحلوف البرى	موزع الوجود
الخنزير المتوحش	لا يوجد بكثرة
الأسد	موجود فى كل الأنحاء
الفهد	موجود بكثرة فى كل مكان
شيتا	فى جنوب المديرية
الشمبانزى	فى غابات النيام نيام وحدود الكنغو
ابن آوى (الثعلب)	فى كل مكان
القط الزبادى	فى كل مكان
ابو ريشات (قط متوحش)	فى كل مكان
النمس (قط برى)	فى كل مكان
فار البوص (فار ضخم)	فى كل مكان

ومن الطيور المنتشرة :

النعام ـ الحبارة بانواعها ـ دجاج الوادى ـ الوز والبط بانواعها ـ والطير النادر (ابو مركوب) وكذلك توجد جميع انواع الصقور الضخمة المفترسة وطيور اخرى عادية كثيرة .

الزواحف :

كما ان بحر الغزال مليئة بالتماسيح ـ ويوجد الورل البرى والبرمائى . ومن الافاعى توجد الأصلة ذات الحجم المتضخم وابو درق (الكبرة) النهاشة الخطيرة وكذلك توجد عشرات من انواع الافاعى واكثرها غير سام .

ومما يدعو لكثرة توالد الافاعى ان خرافة الدينكا بقرابتهم معها لا تسمح لهم بقتلها فتكثر ولكن هذا (السبر) او العقيدة فى طريقها للاختفاء من عقول الجيل الجديد .

الفصل الثانى

بحر الغزال قبل الحكومات

بحر الغزال قبل الحكومات

لم يعرف عن إقليم بحر الغزال الواسع قبل النصف الأول من القرن التاسع عشر اى شيء يستحق الذكر سوى انه كان وطنا لأهله وحدهم شأنه شأن كل مكان لم يخضع لغزو أجنبي . ولكنه تعرض بعد منتصف القرن التاسع عشر لاستكشافات عديدة من عناصر أجنبية عن نوعية أهله وهي عبارة عن مجموعات مختلفة ومتعددة من المغامرين الذين دفع بهم طموحهم للثروة والسلطة والتسلط فوجدوا من بدائية الاقليم وبساطة أهله مسرحا واسعا لممارسة طموحهم وتحقيق اغراضهم بالطرق المشروعة وغير المشروعة والوسائل الانسانية واللاإنسانية .

وكانت أهداف المجموعات المغامرة آنذاك تتمركز فى التجارة بوجه عام وتجارة الرقيق بوجه خاص لأن نشاطها ورواجها قد بلغ أثره فى القرن التاسع عشر وفى افريقيا كلها بغير استثناء لأى جزء منها . وكان لمناطق بحر الغزال بالنسبة للسودان النصيب الأكبر من أمثال ذلك الغزو التجارى لأسباب واضحة منها :

اولا : وفرة الخيرات من الانتاج الطبيعى الذى يجد فى خارج السودان رواجا واقبالا باسعار عالية مثل ريش النعام وسن الفيل وجلود النمر والصيد النادر والتماسيح وعسل النحل الجيد والشمع المستخرج منه وغير ذلك .

ثانيا : امكانية الدخول لبحر الغزال من ثلاثة مداخل أولها من النيل الأبيض الرئيسى بمرفأ (شامبى) وثانيها عن طريق بحر الغزال بمرفأ (مشرع الرك) وثالثها عن طريق شمال دارفور بمنطقة راجا .

وبالاضافة لتلك المداخل فان هناك عدة مداخل فى الشمال الغربى باجتياز بحر العرب الى مناطق الدنكا سواء من أقصى جنوب جبال النوبة أو من دار المسيرية عن طريق (ابيى) أو من دار الرزيقات عن طريق (سفاهة) وغيرها .

ومع ذلك فان الغزو التجارى الأول قد بدأ من شرق بحر الغزال وكان الغزاة من التجار المسلحين اجـانب وليسـوا بسـودانيين بل ان بعضـهم كانوا اوربيين . وقد جاء فى كتاب « التاريخ القبلى لغرب بحر الغزال » الذى وضعه (الأب سانت اندريا) بالانجليزية ان الفضل فى معرفة بحر الغزال وثروتها التجارية الضخمة بدراسة علمية مفصلة يعـود الى المسـتر « برون روليت » الذى صار بعد ذلك قنصلا فى الخرطوم (لساردنيا) . ومما كتبه ذلك المغـامر الاجنبى بعد سياحة دراسية اتسعت جوانب الاغراء والتشجيع للمغامرين من طلاب الثروة والسلطة وكان للاجانب بوجه عام نصـيب السـبق فى ذلك كمـا سيرد هنا .

نشاة الزرايب الكبرى واصحابها :

كان مركز تجارة المغامرين الغزاة او رئاسة عملهم يسمى (زريبة) ذلك لان منطقة كبيرة مناسبة تهيأ بالاخشاب الضـخمة والشـوك فى شـكل (زريبة) كاستحكامات وقائية ضد الهجوم البشرى والحيوانى فى مكان مناسـب من حيث وفرة الماء وغير ذلك . ومـع ان تلك الزرائب كانت فى الواقـع عبارة عن طوابى عسكرية وحصـون قتالية متينة وضـخمة إلا ان اسـم « زريبة » هـو التعريف الذى درج عليه الناس انذاك ورصد فى كل التقـارير والمؤلفـات التى وضعت لذلك الاقليم فى تلك المرحلة .

وقد رايت ان أسجل الغزاة المغامرين فى بحر الغزال بحسب اسبقية توقيت دخولهم للمنطقة على النحو التالى :

چون باتريك JOHN PATHERIC :

ويعتبر هذا المغامر اول من نفذ الى بحـر الغـزال عن طـريق المشرع وراد منطقة الدينكا فى عام ١٨٥٣ ثم استقر بزريبة لرئاسة مغامراته التجـارية فى منطقة الجور الى عام ١٨٦٣ حيث توسعت أساليب عمله التجارى مع قبيلتى « الجور والبونقو » ثم امتد حتى منطقـة قبيلة « بلاندا » ثم اطـراف منطقـة « الزاندى » .

وقـد عرف عن ذلك المغـامر بانه ترك عندمـا غادر البلاد معلومـات كثيرة وخرائط تبين رحلات عمله ونتائجها .

ابو قرون :

كان من عملاء جون باتريك ولكنه استقل وكون جيشا كبيرا واسس زرائب فى دار الزاندى ولكن السلطان اندروما عمـل له كمينا فقتله هـو وكثير مـن رجاله فى اكتوبر ١٨٧٠ م فى دار الزاندى .

الفونسو دى مالزاك MALZAC :

يعتبر هذا المغامر الفرنسى الجنسية الذى هبط بحر الغزال عام ١٨٥٦ م ـ يعتبر مؤسسا لبلدة (رمبيك) بعد ان دخلها عن طريق شامبى واسس تجارة فى كليهما وقد اتسعت تجارته مع « الدينكا اقار » ولكنه مـات فى عام ١٨٦٠ م واشترى كل ممتلكاته مغامر آخر نمساوى الجنسية يسـمى (فـرانز بندر) الذى كان شريكا له فى تجارة شامبى على شواطىء غرب النيل .

الاخوان امبروز وجوليز بونسيت PONCET :

وهذه ايضا شركة فرنسية من المغامرين دخلوا عن طـريق شـامبى بالنيل وتوسعوا فى تلك المنطقة ومنطقة (الاقار) حيث كانت رئاسـتهم فى (اياك) . ثم هجروا تلك المناطق الى نواحى التونج مع غطاس وفتحوا زرائب رئاسة فى امقولو وهو مكان مشهور معـروف حتى الآن . غير ان هـذه الشركة صـفت اعمالها وغادرت بحر الغزال فى عام ١٨٧٢ م .

غطاس :

وهذا مغامر مصرى مسيحى اسمه عبد المسيح غطاس جاء بعـد الأوربيين الذين اوردنا اسماءهم ولكنه كان مغامرا من نوع مقاتل ومثابر اسـتطاع ان ينافس الأوربيين بشراسة ثم ينتصر عليهم ويصفى اعمالهم الواحد تلو الآخر فى شرق ووسط بحر الغزال .

واشتهر غطاس فى مناطق الدينكا والاقـار والريك وقبائل الجـور والبنقـو حتى ان نهر الجور نفسـه كان يسـمى ـ ولا يزال عند بعض الناس بجـور غطاس .

ليس ذلك فقط بل ان رئاسة الاقليم الرسمية فى مدينة التونج كانت تسمى جور غطاس أيضا نسبة لاسم ذلك المغامر المصرى القبطى .

ويقول تقرير من اوراق الجنرال جيسى باشا الذى فتح بحر الغزال باسم الحكومة المصرية فى ١٨٧٨ / ١٨٨٠ انه وجد عونا من تاجر مغامر بسلاحه وعصاباته اسمه (منقريوس) هو ابن اخ لغطاس ورث زرائبه وسلاحه ورجاله وتجارته ورافق جيسى باشا فى رحلته لحرب سليمان الزبير فى غرب بحر الغزال .

محمد عبد الصمد :

وهناك فى الجنوب الشرقى من بحر الغزال ظهر مغامر فى نفس الفترة اسمه محمد عبد الصمد يقول بعض الرواة انه من دناقلة شمال السودان ويقول (سانتندارا) انه جاء من (كانو) فى نيجيريا وهذا غير صحيح .

اقتحم عبد الصمد مناطق للبلاندا وشمال الزاندى وكون منهم فريقا من الاعوان والأصدقاء ودربهم على الرماية والغارات واستطاع ان ينشىء زرائب متعددة وان يستولى على كثير من حصاد الاهالى من الريش والسن وان يستغلهم ويستخدمهم ويكون بذلك ثروة ذات شأن .

وقيل انه قد دخل بحر الغزال وبصحبته نحو من خمسين جنديا من الدناقلة مسلحين وان واحدا منهم اسمه (سرور) كان وكيل عبد الصمد ونائبه فى اعماله وقد اشتهر اسمه هناك .

ولم نجد من المعلومات ما يفيد بمدى الزمن الذى اقامه عبد الصمد فى دويلته تلك بين ١٨٧٠ و ١٨٨٠ م .

منطقة وسط وغرب بحر الغزال :

نرى مما سبق ذكره من سيرة المغامرين الغزاة من الأجانب ومعهم واحد مصرى قبطى وواحد سودانى او نيجيرى ـ نرى من ذلك انهم جميعا عملوا فى الجانب الشرقى من بحر الغزال الى حدود المنطقة الوسطى عن طريق النيل الأبيض وميناء (شامبى) او عن طريق بحر الغزال وميناء (مشرع الرك) ولم يحدث ان غامر اوربى بالعمل فى وسط او غربى بحر الغزال .

اما الذين غزوا وسط وغرب بحر الغزال من تجار العصابات المحاربة منهم)[١] :

على ابو عمورى :

المغامر على ابو عمورى من مواطنى صعيد مصر وقد وفد الى بحر الغزال بقوة مسلحة وقيل انه قد سبق (بثريك) الأوربى على الوصول الى المشرع بايام قليلة فى عام ١٨٥٣ كما يقال ان (ابو عمورى) قد وفق فى اختيار مراكز مثمرة للعمال فى وسط بحر الغزال فى دار البنقو الغربية مع مركز رئيسى فى (لونقو) عند نهر البونقو ويقع قريبا من كنيسة (كايانجو) بدار القولو .

كما انه شيد مراكز اخرى متعددة تقع شمالا فى ديمبولاند .

وتقول بعض الوثائق ان اعمال على ابو عمورى الواسعة فى بحر الغزال قد ورثها ونماها قريبه والوريث الشرعى قناوى ابو عمورى وقد امتاز هذا بنشاط كبير وتحرك واسع مع تفكير سليم فى كل ما كان يصدر منه حتى طبقت شهرته الآفاق كما ان اعماله امتدت حتى وصل الى نهر الكنغو البلجيكى ويقال ان المغامر (على كوبو) كان احد وكلائه فى بحر الغزال وهو من الذين اشتهروا بالبطش والقوة كرئيس عصابة مسلحة . ومن المعالم التى بقيت آثارها لزمن طويل زرائب قناوى ابو عمورى فى المكان الذى لا يزال يسمى (ديم قناوى) وزرائبه على بعد نحو ميل شمال مدينة واو وعلى طريق اويل ثم على بعد عشرة أميال اخرى فى الشمال الغربى من الغابة .

وقناوى ابو عمورى من المصريين الاذكياء إذ استطاع ان يسترضى الحكام الاتراك فى الخرطوم عن اعماله وان يقيم من نفسه سفيرا غير رسمى للحكومة التى منحته لقب (قناوى بك) ولقد كانت وسائله لذلك التقدير وبغض النظر عن اعماله الرديئة ضد المواطنين هى الرشوة للحكام .

الزبير باشا :

ومن المعروف ان اكثر المغامرين الذين اشتهروا فى بحر الغزال هو الزبير باشا رحمة منصور وهو من قبيلة الجميعاب بريفى شمال الخرطوم . وقد ولد الزبير باشا فى عام ١٨٣٠ وتوفى فى عام ١٩١٢ عن ثلاثة وثمانين عاما .

---

(١) سانت اندريا

وقد التحق الزبير فى بداية عمله بعصابات على ابو عمورى كاحد جنوده
ولكنه كان متفتح الذهن مع شجاعة مفرطة دفعته الى الانفصال عن
« ابو عمورى » وتكوين زريبة وجماعة منفصلة تعمل مستقلة تحت امرته
ورئاسته واستدعى من رجال الجميعاب والجموعية بالشمال اعوانا استعان
بهم على المغامرات الواسعة فى بحر الغزال وكان ذلك فى عام ١٨٥٨ م عندما
استقر فى منطقة (القولو) غرب واو بطريق راجا .

ثم نزح فى عام ١٨٦٥ الى الغرب فأسس (ديم زبير) ولكنه لم يلبث ان طمع
فى مملكة واسعة فنزح بجنده الى دار الزاندى فى جنوب بحر الغزال وهزم
السلطان (تكما) فى مواقع حربية واستولى على المنطقة وتزوج بنت السلطان
(تكما) ليصطلح مع الزاندى فى عام ١٨٧١ .(١)

وكان الزبير يرسل قوافل بضاعته عن طريق دار الرزيقات (شكا) بشمال
دارفور ومنها الى كردفان فالخرطوم فمصر ولكن عرب الرزيقات اعترضوا
قوافله عدة مرات وصادروا بضائعه فزحف إليهم فى جيش مسلح وخاض
معهم معارك وانتصر عليهم .

ثم طمع فى فتح دارفور ذات السلطنة المستقرة فعرض على الرزيقات صلحا
واتفاقية يساعدونه بموجبها على فتح دارفور والاستيلاء عليها(٢) وكان
الرزيقات يعانون كثيرا من الغبن والعذاب من سلاطين الفور فاتفقوا مع
الزبير باشا فزحف الى دارفور مسلحا بخبرة بحر الغزال الواسعة فى فنون
الحرب وحدثت فى عام ١٨٧٤ م موقعة (منواشى) التى انتصر فيها الزبير
واعوانه على السلطان ابراهيم قرض الذى قتل فى صدر المعركة . ثم زحف
الزبير باشا الى الفاشر واستولى على دارفور فى ٣ نوفمبر ١٨٧٤ م .

ولان الزبير باشا كان قد اقنع حكومة الخرطوم وهو يعمل مديرا لها هناك
بان الخديوى اسماعيل فى مصر قد وافق مضطرا على ذلك ومنحه لقب (بك) .
ولذا فانه عندما دخل الفاشر فاتحا رفع العلم المصرى واعلن ضم دارفور الى
بقية مديريات السودان تحت الحكم الخديوى المصرى .

(١) نعوم شقير

(٢) مصر فى السودان ـ ريتشارد هل

ولكن ايوب باشا حاكم الخرطوم كتب للخديوى مشككا فى ولائه ومحذرا بان
الزبير الذى منح لقب (باشا) رجل طموح وقد يكون مخططا للزحف على
الخرطوم لطرد الحكم المصرى من السودان . ولهذا فان الخديوى قد طلب
الزبير للقاهرة ليحضر التكريم الذى سيقام له ويتقلد الالقاب والنياشين التى
ستمنح له . وصدق الزبير باشا كل ذلك وما ان وصل القاهرة حتى اعتقل
هناك ثم حددت اقامته فى مدينة حلوان ومنع من العودة للسودان .

وكان ابنه سليمان الزبير لا يزال يشرف على اعمالهم ببحر الغزال وعندما
عرف بان والده قد منع من العودة للسودان رفع راية العصيان على الحكم
المصرى فى السودان فجرد عليه غردون باشا حملة بقيادة روموليو جيسى باشا
فقتله وشرد جماعاته كما سيرد فى مكان اخر من هذا الكتاب .(١)

والزبير باشا بالمقارنة مع كل رفاقه الذين غامروا واستثمروا بحر الغزال
باهلها وخيراتها يعتبر ابعدهم صيتا واكبرهم شأنا وسمعة ومع انه على قمة
المسئولين عن انتشار تجارة الرقيق بكل سيئاتها وفقدان انسانيتها إلا انه
كان يختلف عنهم بما قام به من تنمية علاقات شخصية ومصاهرات مع
السلاطين ومواطنى المناطق ومن هنا جاء انتشار اسمه على نطاق واسع .

البصيلى :

والبصيلى مغامر مصرى من الصعيد انشا زرائبه عند ملتقى (خور انقوا
مع القيت) . وقد جاء البصيلى بعد ابن عمورى واشتهر بين الناس وبخاصة
اسم رئاسة اعماله فى بلدة (بصيلية) وهى مركز وسط قبيلة اندقو على بعد
نحو عشرة اميال للجنوب الغربى من مدينة واو .

وقد عرف عن البصيلى ان اعماله قد امتدت الى منطقة الزاندى فى الجنوب
ثم ركز اعماله على مناطق قبائل القولو والكريش .

العقاد :

وهذا ايضا مغامر مصرى صعيدى وفد الى بحر الغزال قبل عام ١٨٧٠
وعمل فى مناطق متعددة وعين وكلاء عنه فى كل مكان أسس فيه عملا .

(١) نعوم شقير

كوشوك على :

تقول بعض الوثائق انه من مواليد الاتراك وقد اسس زرائب فى منطقة غرب نهر الجور ولكنه خاض معركة ضد (الهلالى) فمات مقتولا فى المعركة فماتت اعماله .

ويقال ان زريبته المسماة (واو) هى التى سميت بها عاصمة المديرية (واو) كما يقال ان « الهلالى » وهو مغامر مغربى قد احتل زرائب كوشوك باعتبار انه موفد من حاكم الخرطوم لاحتلال بحر الغزال ولكن نشبت بينه وبين الزبير رحمة معارك اندحر فيها وقتل على يد الزبير نفسه كما سيأتى .

ادريس ابتر :

لقد عرف ادريس ابتر كتاجر مغامر فى بحر الغزال من فترة مبكرة حوالى ١٨٦١ م ولكنه كان قبل ذلك فى خدمة الكنيسة الكاثوليكية كقبطان لسفينة وهو العمل الذى كان يفضله كل ابناء الدناقلة فى القرن التاسع عشر وحتى هذا القرن .(١)

ولأن إدريس من ابناء منطقة الحفير فى دنقلا فانه قد عمل فى بادىء الامر بحارا فى السفن الشراعية ولكن فكره الثاقب وذكاءه الطبيعى فتح أمامه الآفاق للعمل التجارى والمغامرات .

وبدأ إدريس مغامراته بغارة مسلحة على زرائب الخواجه « چون كلينزنك » ونهب منها كل سن الفيل وريش النعام والجلود المختلفة التى كان يجمعها ريثما يصدرها .

اما زرائب رئاسة عمله فقد اقامها على بعد مائة وخمسين ميلا للغرب من مدينة واو ويقول (سانت اندريا) فى كتابه ان آثار وبقايا تلك الزرائب لا زالت باقية حتى الآن وانه شاهد صورا لها فى عام ١٩٤٩ م وهى فى حالة معالم واضحة . وقد اشار الى ان موضع تلك الزرائب كان بالقرب من ملتقى خور جاندا مع الطريق العام بين واو وراجا . ويقول القدماء ان الاشجار التى اخترق جذورها رصاص الحرب بين جيسى باشا وسليمان الزبير لازال بعضها قائما منذ عام ١٨٧٩ م .

(١) نعوم شقير

وإدريس ابتر كان قد عمل متعاونا مع الزبير باشا فترة فى بحر الغزال ولكنه اختلف معه ولم يكتفيا كلاهما بالانفصال ولكنهما اشعلا نار عداوة مستعرة بين رجالهما استمرت بعد انقطاع الزبير باشا عن بحر الغزال لتزيد اشتعالا مع سليمان الزبير . ويبدو ان إدريس كان اذكى واوسع حيلة من سليمان الزبير الذى كان يعتمد على الشجاعة والقوة بغير حاجة للدهاء والذكاء ولهذا خسر معاركه مع جيسى باشا الذى وجد تعاونا وسندا من إدريس وغيره من رجال العصابات الاخرى . وكان موضع رئاسته يسمى « ديم إدريس » .

چون كلنزنك :

هذا الخواجة لم نعثر على معرفة اصله وجنسيته ويبدو انه كان احد الافاقين المغامرين الذين سمعوا بفراغ افريقيا من الحضارة والحكومات كما سمعوا بثراء البلاد بشتى انواع الخيرات الطبيعية فارتادها مثل غيره .

ويبدو انه حصر نشاطه فى مناطق غرب واو مع قبائل اندقو وقولو ولم يكن له شأن يذكر وكل ما عرف عنه ان إدريس ود ابتر قد نهب زرائبه وبضائعه وكل ممتلكاته كما ذكرنا فى الحديث الخاص بإدريس ابتر .(١)

ارباب الزبير عدلان:

وهذا المغامر من قبيلة الجعليين وقد كان صديقا ومتعاونا مع الزبير باشا رحمة ولكنه بعد رحيل الزبير اقام زرائبه الخاصة به فى مكان اطلق عليه (ديم ارباب) فى منطقة (القولو) ثم انضم اليه كثيرون من قبيلة (سيرى) الذين هربوا من ضغط سلاطين الزاندى فى الجنوب .

وقد عرف ارباب بانه كان اكثر التجار ايواء للشماليين من رواد بحر الغزال حتى ان الديم المنسوب اليه كاد ان يكون منطقة شمالية اكثر منها جنوبية وكذلك كان ارباب ورجاله على صلات مصاهرة وعلاقات ودية مع سكان المنطقة وصارت بعض القبائل الأخرى تأوى اليه فى منطقته .

(١) سانت اندريا

ديم بكير :

كان بكير هذا تركى الأصل وعلى علاقة مع كوشـوك على ولم تعـرف عن مغامرات كثيرة ولكنه كان مزواجا قيل ان عدد اسرته عند وصول جيسى باشا لبحر الغزال قد بلغ نحو ٤٠٠ من ابناء وبنات واحفاد .

ولكن المعلومات لم تثبت لصاحب الديم اى حروب أو مغامرات .

الدخول من الغرب :

كل أولئك ممن ذكرنا من المغامرين دخلوا بحر الغزال من الشرق عن طريق النيل ثم مشرع الرك ولكن فى عام ١٨٥٦ م بدأ تسرب كثير مـن السودانيين العرب الذين هربوا من بطش سلاطين الفور الى داخل بحر الغزال عن طريق منطقة الرزيقات وحفرة النحاس الى منطقة راجا وشرقها .

ويقول (ريتشارد جراى) فى كتابه ان معـظمهم انضـم فى أول الأمـر الى (ادريس ود ابتر) الذى وضع زرائبه قرب منابع نهر (بونقو) ثم تسربوا الى مناطق اخرى كثيرة . وكان رؤسـاء قبيلة (كريش) يفـرضون ضرائب على (الجلابة) الشماليين ولكنهم تكاثروا حتى سيطروا على السلاطين والمنطقة وكانت تجارتهم فى بادىء الأمـر مـن الملابس القـطنية والحلى النحـاسية والزجاجية وغيرهـا واشـتروا بذلك سـن الفيل والعسـل والجلود وبعض الأسلحة النارية التى انتشرت هناك .

وكان بعض (الجلابة) وكلاء لتجار كبار فى كردفان ولذلك انعشوا أسـواق غرب بحر الغزال حتى ابتلعتهم فى آخر الأمر زرائب المغامرين فى أنحاء بحـر الغزال فتخلوا عن وكالاتهم واستقلوا بأنفسهم .

الفصل الثالث

الحكم التركى المصرى لبحر الغزال

الحكم التركى المصرى

كانت مناطق اعالى النيل وبحر الجبل قد خضعتا لغزو الفتح المصرى على يدى السير صمويل بيكر والجنرال غردون باشا من بعده فى السبعينات من القرن التاسع عشر فى عهد الخديوى اسماعيل الذى كان على درجة قصوى من الاهتمام بهدفين هما :

١ ـ ضم أكبر رقعة من الأرض الأفريقية التى يجرى عليها النيل الى مصر عن طريق الاستعمار والامتلاك واكتشاف المنابع .

٢ ـ وقف تجارة الرقيق التى كانت منتشرة ومزدهرة فى جنوب السودان على ايدى مغامرين من الأتراك والأرمن والمصريين والمغاربة وغيرهم ـ اما السودانيون من عرب شماليين أو زنوج جنوبيين ممن عملوا فى مغامرات تجارة الرقيق فقد كانوا مستخدمين فقط لرواد تجارة الرقيق وخاصة فى بداية المغامرات .[١]

ومع ان الحاكمين صمويل بيكر وتشارلس غردون لم ينجحا فى مهمتهما بالقدر المطلوب الا ان منطقة بحر الجبل ظلت تحت الحكم المصرى المباشر ولم يحدث لممثلى الحكومة الخديوية المصرية ان انسحبوا أو قاموا بجلاء اختيارى عن منطقة احتلوها بحد السيف أو برضاء اهلها .

وحتى بعد اعلان المهدية وانتصار كرم الله كركساوى على حامية امادى وما حولها وزحف عمر صالح بين بور ومنقلا والرجاف فان امين باشا مدير المديرية لم يستسلم برغم انقطاع صلته بالخرطوم التى فتحها المهدى وبالقاهرة التى تخربت المواصلات السلكية بينها وبين السودان كله .[٢]

اما بحر الغزال :

كان ذلك هو الوضع فى الاستوائية أو ما كان يسمى آنذاك (ببحر الجبل) اما بحر الغزال فقد تركت لمصيرها مع المغامرين من تجار الرقيق الذين كانت تقوم بينهم معارك لحيازة مناطق النفوذ من غير ردع من الحكومة التى كانت تسيطر على السودان كله منذ بداية الفتح المصرى فى ١٨٢١ .[٣]

---

(١) مصر فى السودان « بروفيسور ريتشارد هل »

(٢) نعوم شقير

(٣) السودان الجنوبى ـ ريتشارد جراى

وفى عام ١٨٦٩ وصل الى بحر الغزال مغامر مصرى اسمه محمد الهلالى بجيشه وعتاده ليقيم ادارة مصرية فى بحر الغزال بموجب اوامر خديوية واصطدم فور وصوله بالمغامر السودانى الأكبر الزبير رحمة منصور وهو جعلى (جميعابى) من شمال مديرية الخرطوم كان قد وصل بحر الغزال فى عام ١٨٥٦ وشيد خلال عقد واحد من السنين امبراطورية تجارية واسعة جعل مركز رئاستها اخيرا فى بلدة (ديم زبير) غرب واو .

واستطاع الزبير رحمه بشجاعته وسعة حيلته وقوة شخصيته بين سلاطين بحر الغزال وزعماء عشائرها ان يهزم الهلالى ويقتله فى معركة حاسمة فى غرب منطقة واو وان يستولى على كل سلاح الحكومة المصرية وعتادها مما كان عند الهلالى .(١)

وكان الزبير رحمة يعانى كثيرا من اعتداء عرب الرزيقات على تجارته التى كانت تتخذ طريقها بديارهم الى كردفان فالخرطوم فمصر . ولما وجد نفسه قويا بالتسلح الجديد وذا معنويات مرتفعة بانتصاره على الهلالى او بالاحرى على حكومة الخديوى زحف نحو الرزيقات فاوقع بهم هزيمة منكرة واملى عليهم شروطا قاسية فيما يختص بقوافل بحر الغزال ومسئوليتهم عن حمايتها حتى تجتاز دارفور كلها بحدودها المترامية الأطراف .

وهنا عرف الخديوى اسماعيل ان ارسال قوة لاخضاع الزبير رحمة واحتلال بحر الغزال قد غدا أمرا مستحيلا من حيث النفقة وضمان الانتصار فلم يجد بدا من أن يعلن رسميا تعيين الزبير رحمه مديرا لبحر الغزال يمثل الحكومة الخديوية مع لقب « بك » وهو قرار توخى فيه الخديوى اسماعيل اختيار اخف الشرين ضررا بالنسبة لهيبة الحكم المصرى فى السودان .(٢)

وباغراء المنصب الجديد والمعنويات المرتفعة والتسلح المكتمل من كل الوجوه طمع الزبير رحمه فى فتح دارفور التى كانت سلطنة مستقلة لا تتبع الخديوى وترك ابنه سليمان الزبير رحمة على رئاسة بحر الغزال ورعاية مصالحه الخاصة التى لم يؤثر فيها تعيينه مديرا للمديرية بصفة رسمية .

وتعرض سليمان الزبير لمؤمرات ومكايد المنافسين من المغامرين الآخرين وعلى رأسهم إدريس ابتر وهو احد الدناقلة الاذكياء الذى استطاع ان يقنع

(١) مذكرات الزبير باشا رحمة

(٢) مذكرات الزبير باشا رحمة

الجنرال غردون بأن يخلع عليه منصب مدير بحر الغزال بدلا من سليمان الزبير فنشبت بينهما مواقع حربية ونزاعات لم تقف عند حد .(١)

وحينما كان سليمان الزبير يعتمد فى خصومته لادريس ابتر على تفوق سلاحه وقوة رجاله من عصبيات الجعليين ومن جنود الزبير المحليين الذين دربهم واكتسب ثقتهم ـ كان ادريس ابتر يعتمد بقدر اكبر على تصيد اخطاء سليمان الزبير مع الحكومة حتى استطاع اخيرا ان يقنع غردون باشا فى الخرطوم بتمرد سليمان الزبير وخروجه على الحكومة والخشية من استيلائه على بحر الغزال ودارفور وبترهما من كيان الدولة .

ويبدو أن سليمان الزبير ـ بعد ان ايقن بتحديد الخديوى اسماعيل لاقامة والده الزبير باشا(٢) ـ قد قام فعلا بما يدل على نية تمرده وخروجه على القانون انتقاما لمعاملة الخديوى لوالده الذى فتح دارفور بعد انتصاره على السلطان « ابراهيم قرض » فى معركة منواشى ورفع العلم المصرى على سارية قصر السلطان فى الفاشر فى ٣/١١/١٨٧٤ .

ولم يكن للجنرال غردون بد من ان يخضع سليمان الزبير للدولة وسيطرتها فارسل حملة عسكرية بقيادة جنرال ايطالى اسمه « رومولو جيسى Romolio Gessi » . وزحف جيسى باشا بجيشه من الاستوائية عن طريق رمبيك واستولى على واو فى ديسمبر ١٨٧٨ ثم زحف الى غرب بحر الغزال ليحاصر سليمان فى مركز رئاسته (ديم زبير) .

وسنحت لسليمان الزبير فرصة التدليل على عدم تمرده وانه كان ضحية تآمر من منافسين وطامحين طامعين ولكنه بتوتر اعصابه مما حدث لأبيه تحدى جيسى باشا الذى اقتحم بحر الغزال غازيا محاربا قد آثر أن يرمى بثقله بكله فى اتون حرب ضد الحكومة وجيشها برغم نصائح قواده ومستشاريه فاضطر (رابح الزبير)(٣) ان يتخلى عن سليمان بثلث الجيش واتجه غربا نحو افريقيا الاستوائية .

(١) مصر فى السودان ـ بروفيسور ريتشارد هل

(٢) منح لقب باشا بعد فتحه لدارفور ولكن الخديوى خشى من طموحه على ضياع السودان كله من يد مصر فاستبقاه محتجزا فى مصر (حلوان)

(٣) مذكرات الزبير باشا رحمة

ودخل سليمان فى حرب انتحارية لعدم تكافؤ قوته وعتاده حتى تمكن جيسى باشا فى ١٨/٧/١٨٧٩ من مفاجأته فى مكمنه وقتله مع عدد كبير من بنى عمومته وجنده . وقد سلك القائد الايطالى فى تنفيذ اعدامهم طريقة القسوة الرومانية القديمة بان كبلهم بالحديد وربطهم على جذوع الاشجار وصار يرميهم بالرصاص دفعة بعد دفعة بعد ان مكن لجنده الحاقدين ولاعداء سليمان من العرب الشماليين من ضربهم وأيذائهم .

وبعد انتصار رومولو جيسى تعين مديرا لبحر الغزال فى فترة ما بين ١٨٧٩ / ١٨٨١ ولكن الانتصار العسكرى لا يشكل بالضرورة نجاحا اداريا فى الاقليم ولذلك فان جيس باشا الذى تسلم اقليما مهدما ومخربا ومجزءا لم يستطع ان يلم شمله ولم يجد طريقا لاى مورد مادى يكفى حتى لطعام الجند فضلا عن نفقات العتاد والبناء والخدمات ايا كان حجمها .

ومما يؤخذ على الجنرال الايطالى انه ظل يطارد التجار الشماليين فى غرب بحر الغزال ويحكم باعدامهم امتدادا لسياسة ابادة كل ما يتعلق بسليمان الزبير وقد ضاعت ارواح كثيرة لم تكن لها صلة بالزبير وابنه سليمان بل اعدم بعض من كانوا اعداء لسليمان لانهم لم يعطوا الفرصة لاثبات شخصياتهم وهوياتهم وسلوكهم السابق كما اعدم بعض السلاطين الذين تعاونوا مع الزبير باشا من قبل بالرغم من اثبات قطع صلاتهم مع سليمان الزبير . ولكن جيسى باشا لم يستطع ان يفعل شيئا فى دار الدينكا الذين اعتصموا واعتزلوا حكمه .

جيسى باشا ودار الزاندى :

كان الزبير باشا رحمة قد غزا دار الزاندى عن طريق سياسة « فرق تسد »[١] بين سلاطين الزاندى المتنافسين حتى استطاع ان يهزم هذا بجيش ذاك وقد اقتضت سياسة الملاينة والملاطفة والدبلوماسية ان يتزوج بنت (السلطان تكما) احد سلاطين الزاندى العتاة ويجذبها اليه عاطفيا ثم يستخدمها بطريقة ماكرة ضد ابيها فيهزمه[١] .

(١) مذكرات الزبير باشا

وتمكن الزبير باشا من الاستيلاء على كثير من ارض الزاندى فى شكل امبراطورية تخضع جميع اطرافها لحله وربطه وادارته التجارية والعسكرية ولكنه عندما اعتزم فتح دارفور ونفذ الفكرة ترك جيشا عرمرما بدار الزاندى كما ترك وكلاء وعملاء زاد عددهم بوصول أعداد أخرى من المغامرين العرب لادارة الزاندى وبخاصة بعد ان علموا ان ليس للزبير باشا من عودة للجنوب وان ابنه سليمان قد قتل وابيدت كل قوته فى ديم زبير .

ومد الجنرال جيسى باشا عينيه لسلاطين الزاندى بعد فراغه من معارك العرب والوسط للمديرية وحاول الاتصال (بالاقنقارا) كل على حدة ولكنه ادرك بان سيادتهم قد تقلصت وان نفوذهم لم يعد كما كان من قبل . وكان لزاما عليه ان يشن حربا ضروسا ضد العرب المسيطرين على دار الزاندى ولكنه لم يكن واثقا من ان قبيلة الزاندى نفسها ستكون فى عونه ونصرته لانه علم ان طريقة حكم العرب بين الزاندى كانت تجارة محصنة وان كثيرا جدا من البارزين فى الزاندى يستفيدون باقدار خيالية بالتعاون مع العرب وليس من المحتمل ان ينصروا الحكم المصرى عليهم[١] .

وبين الاقدام والتردد راى الجنرال رومولو جيسى ان يذهب الى اهله فى اجازة مرضية بعد الجهد الذى بذله فى تصفية سليمان الزبير وجيشه ولكنه لم يكد يصل ميناء السويس بعد ان غادر سواكن حتى توفى متأثرا بمرض شديد الوطأة .

وانطوت بوفاة الجنرال جيسى صفحة الحكم المصرى لبحر الغزال لان لبتن بك الذى تعين بدلا عنه لادارة المديرية وركامها لم يجد وفرة من الامكانيات لانقاذ ما يمكن انقاذه بل لم يجد متسعا من الزمن ليحقق اى قدر من النجاح الادارى لان المهدية اعلنت عام ١٨٨١ وفتكت بكل حملات الحكومة العسكرية فى عام ١٨٨٢[٢] ثم فتحت الابيض وقضت على حملة هكس باشا فى عام ١٨٨٣ واخيرا هجم عليه الامير كرم الله كركساوى فى عام ١٨٨٤ واستولى على بحر الغزال واخذ حاكمها اسيرا فى سجن المهدى . وسيأتى تفصيل ذلك فى الفصل التالى .

(١) ارض وراء الانهار – روبن كولن

(٢) حملة الشلالى وحملة راشد باشا

ومما يذكر للجنرال الايطالى جيسى باشا فى بحر الغزال انه بعد ان صفى تجارة الرقيق فى معظم الزرائب وطرد الاجانب العاملين فيها والجلابة الشمال عمد الى التفكير فى الموارد المالية للحكومة وللاهالى(١) وبخاصة حينما علم ان تصدير سن الفيل مورد محدود سينتهى يوما ما .

ولانه رأى فى المناطق الخصبة من بحر الغزال بعض شجيرات القطن فقد كتب للجنرال غردون مقترحا عليه ان يستخدم القوة البشرية التى انقذت من زرائب التجار فى اقامة مشاريع قطن مصرية على نطاق واسع لتنتج كميات وفيرة من القطن يمكن للحكومة ان تسوقها فى الخرطوم ليكون عائدها ميزانية لبحر الغزال لمواجهة نفقات القوات النظامية والخدمات الضرورية .

وفى نفس الوقت فكر جيسى باشا فى الاستفادة من خيرات بحر الغزال الأخرى . وبعد ان جمع كل المخزون فى الزرائب من سن الفيل وباعه فى الخرطوم بمبلغ تسعين الف جنيه ـ زرع مقدارا متواضعا من القطن على سبيل التجارب فانتج نحو الف قنطار كما جمع الف قنطار من التمر الهندى والف قنطار من المطاط وكميات ضخمة من عسل النحل وشمعه مما عاد على الحكومة والعاملين برخاء مادى واضح .

ثم وضع جيسى باشا مخططا مدروسا لزراعة الأرز بمراقد المياه وكذلك زراعة قصب السكر ومشروعا آخر للاستفادة من الاخشاب الجيدة من غابات بحر الغزال ترسل للخرطوم وتوفر استيرادها من اوربا . كما ترك مشروعات للاستفادة من مناجم النحاس من منطقة (حفرة النحاس) ومناجم اخرى هناك للحديد وجد ان قبائل الجور البونقو يستخدمونها لصنع الآلات والسلاح الأبيض .

ومع ان غردون باشا الذى كان يائسا من بحر الغزال قبل حملة جيسى قد وافق على هذه المشاريع إلا أن الأجل لم يطل بالجنرال جيسى لينفذ مشاريعه تلك ولا أظن أنها نفذت بعد ذلك حتى مرحلة الحكم الثنائى ولا تزال بحر الغزال ارضا خصبة لخيرات كثيرة فى ظاهر الارض وباطنها .

---

(١) سانت اندريا

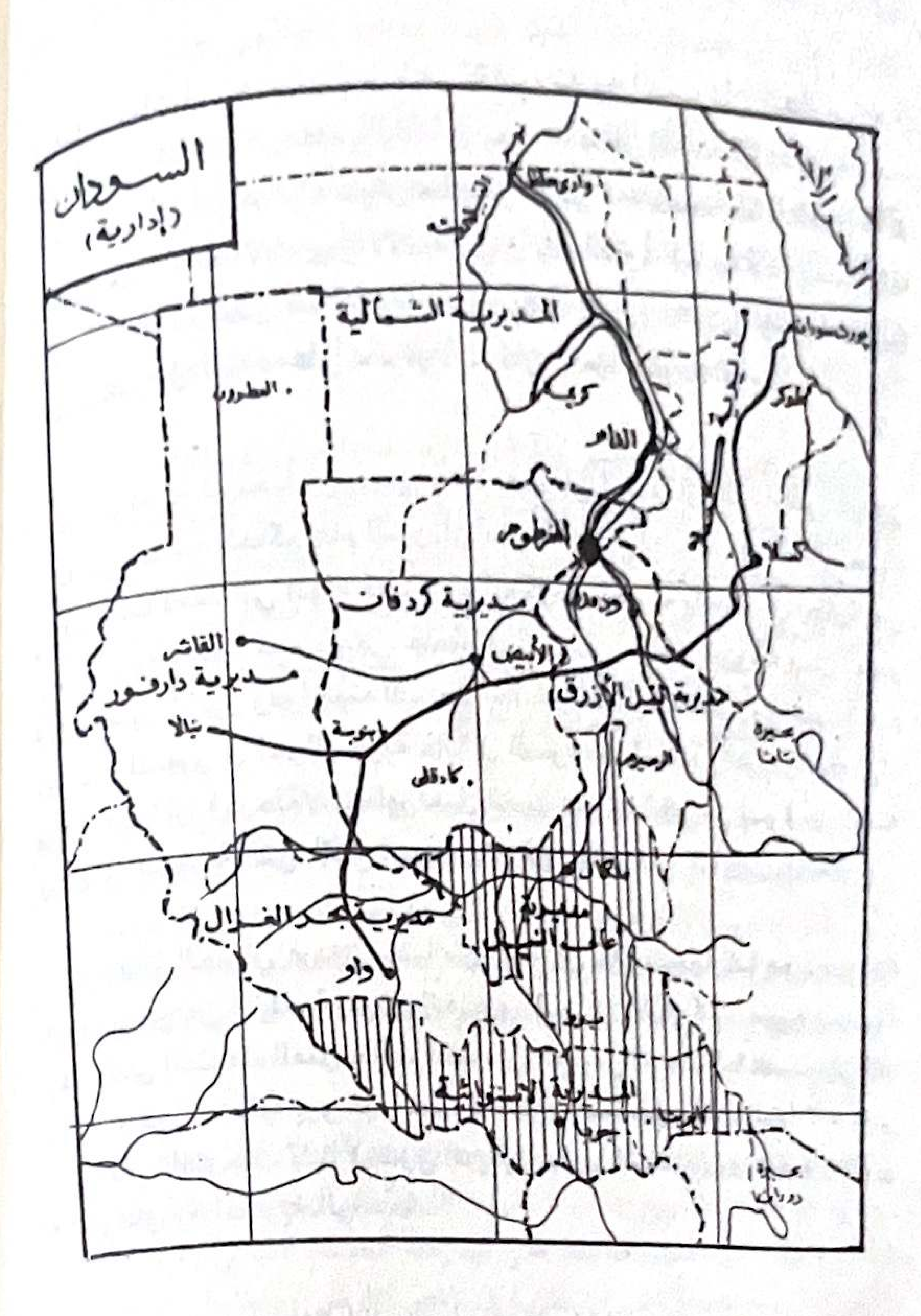
واصعب ما كان يواجه بحر الغزال ويضيع منافع الانتاج هو النقل والمواصلات لان نهر الجور غير صالح للملاحة إلا فى فترة موسمية ضيقة جدا وعدم وجود طرق برية بطريقة عملية فى الماضى .

ويقول (ريتشارد جراى) مؤلف كتاب « تاريخ السودان الجنوبى من ١٨٣٩ الى ١٨٨٩ » عن جيسى باشا فى بحر الغزال انه حكم المديرية بعد حملاته العسكرية وتصفيته جيش سليمان الزبير لمدة خمسة عشر شهرا فقط ومع ذلك فان اداءه الادارى والاقتصادى فى تلك الفترة البسيطة كان مدهشا وعظيما بالرغم من انه كان يعمل بغير أعوان اداريين وخبراء فنيين واقتصاديين بل لعله ـ على حد قوله ـ كان يعمل منفردا تقريبا .

ومن الواضح تاريخيا ان جيسى باشا بعد ان استقال تشارلس غردون باشا عن منصبه كحاكم عام للسودان عام ١٨٧٩ م لم يرغب فى العمل تحت رءوف باشا فعمد الى انهاء خدمته مع الحكومة المصرية بالسفر فى اجازة الى ايطاليا يعود بعدها لمصر لينهى خدمته فى السودان . ولكن خروجه من بحر الغزال بنهر الجور ومواجهته للسدود المائية ومحاولته للخروج منها قد احتاجت لشهور فى احوال جوية غاية فى السوء مما اضناه واعياه وانهك قواه فوصل سواكن فى رحلة على ظهر جمل قضت على ما تبقى من قوة مقاومته فمات فى السفينة التى اقلته للسويس ودفن هناك فى ٣٠ ابريل ١٨٨١ م .

واستقالة الجنرال غردون باشا من السودان كان سببها كما هو معروف انه لم يرض عن الاطاحة بعرش الخديوى اسماعيل الذى كان يعتبره صديقا وهو الذى استدعاه للعمل حاكما للسودان الجنوبى ثم حاكما للسودان كله وكان غردون عاطفيا يرى فيما حدث للخديوى اسماعيل ظلما شديداً لأنه هو الذى فتح الفتوحات كلها فى شرق افريقيا وجنوب السودان ودارفور وكون الامبراطورية المصرية الواسعة .

اما عودة غردون باشا للسودان فى عام ١٨٨٤ م إبان المهدى فى عهد الخديوى توفيق فهى المرة الثالثة لحكمه الذى قتل فيه بالخرطوم على يد الامام المهدى وجيشه .



الفصل الرابع

المهدية فى بحر الغزال

المهدية فى بحر الغزال

تعود الاحداث التى غيرت وجه الحياة فى بحر الغزال بعد عام ١٨٨١ م الى الاحداث الكبرى التى جرت فى مصر وفى السودان الشمالى وقيام ثورة المهدية التى ابعدت بانتصارات سريعة وباهرة سلطة الحكم المصرى عن كل السودان .

ولهذا فانه قد صار لزاما لربط الاحداث مع بعضها ان نبدأ هذا الفصل بخلفية شاملة لكل تلك الاسباب قبل ان نتحدث عن احداث بحر الغزال كاقليم قائم بذاته فى مرحلة معينة .

انهيار فى مصر :

من المعروف ان الانهيار الادارى فى مصر والذى امتد للسودان كانت اسبابه اقتصادية مالية بسبب تصرفات الخديوى اسماعيل واسرافه وطموحه الذى تجاوز مدى امكاناته المالية بكثير ونجاحه بعد ان تم له توسيع امبراطوريته الافريقية التى شملت الحبشة وارتيريا والصومال ودارفور والتوغل فى المناطق الاستوائية وما حدث من عجزه عن استقرار معظم تلك المناطق وخسائره فى الارواح والعتاد والاموال فى حربه مع الحبشة .

ولأن بريطانيا وفرنسا كانتا الدولتين المولتين لمصر فانهما لتراكم الديون على الخديوى اسماعيل وعجزهما عن كبح جماح اسرافه وعجزه عن السداد قد عمدتا الى خلعه من العرش وتنصيب ابنه الخديوى توفيق على عرش مصر مع وضع مستشارين ماليين بصلاحيات تامة لتولى مراقبة التصرفات المالية وكان ذلك فى يولية ١٨٧٩ م .

وكان الخديوى توفيق ضعيفا بحيث لم يستطع ان يحقق الاستقرار فى مصر ولا حتى فى نطاق الجيش المصرى الذى كان يديره فى مصر ضباط من اصول تركية مما اوغر صدور ذوى الاصالة المصرية من الضباط والجنود فنشبت ثورة احمد عرابى باشا فى اواخر ١٨٨١ م . وفى يناير ١٨٨٢ م اصدرت بريطانيا وفرنسا مذكرة سياسية موحدة تعلنان فيها قيام حماية لسلامة عرش توفيق وزادت تلك المذكرة من اشعال الثورة ضد الخديوى مما دعا

بريطانيا لضرب الاسكندرية باسطولها وانزال جيش كامل لمنازلة احمد عرابى باشا الذى انهزم فى معركة التل الكبير يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ م وبذلك صارت مصر تحت الحماية البريطانية المباشرة .

ولاهتمام الانجليز بنواحى الصرف المالى فى كل انحاء الامبراطورية المصرية فان السيطرة المصرية على كثير من الاماكن قد تقلصت لان امدادات التموين العتاد الحربى وحتى مرتبات الجنود فى الاقاليم الافريقية قد تعثر صرفها لضيق الموارد .

وبهذا الضعف من الخديوى توفيق وإفلاس الخزينة المصرية عن الصرف على مستعمرات مصر نهب الانجليز والفرنسيون والايطاليون مناطق شرق افريقيا فى الصومال وارتيريا ونهبت الحبشة منطقة هرر المصرية وضمتها اليها ولم يبق لامبراطورية مصر فى البحر الاحمر من ميناء سوى (سواكن) لانها تقع فى السودان .

وباستقالة غردون باشا فى عام ١٨٧٩ م احتجاجا على عزل الخديوى اسماعيل تولى حكم السودان بالانابة رءوف باشا الذى كان ضعيفا فى السودان وليس بذى نفوذ فى مصر فتأثرت مديريات السودان بضعف الادارة فى الرئاسة وكان نصيب بحر الغزال فى ذلك كبيرا وبخاصة بعد ذهاب جيسى باشا .[1]

ومع ضعف الادارة المصرية بوجه عام تحركت فى نفوس السودانيين العرب كل كوامن البغضاء والاحقاد ضد الحكام لما لاقوه من بطش غردون باشا واعوانه بهم فى بحر الغزال والأسلوب الذى قتل به سليمان الزبير وكل اعوانه من بنى عمومته وغيرهم وابادة عنصر الجلابة فى غرب بحر الغزال ووسطها وكذلك طرد كبار التجار ومصادرة مرافقهم التجارية فى دارفور وكردفان بدعوى محاربة تجارة الرقيق ثم ما حدث من احقاد كان يجترها عرب البقارة فى دارفور وكردفان لان الحكومة فرضت عليهم ضرائب القطعان على البقر بطريقة ارهقتهم وهو امر لم يكونوا قد اعتادوا عليه بالاضافة الى انهم كانوا يرونه اهانة وإذلالا لانه جزية يفرضها الاقوى على الاضعف .

---

(١) مصر فى السودان ـ ريتشارد هل

وبهذه الاحقاد وتلك البغضاء هيات الحكومة المصرية الجو النفسى فى نفوس السودانيين العرب لعداوتها ومناجزتها متى حانت الفرصة لذلك . ولم يكد المهدى يعلن دعوته الدينية ضد الحكم التركى المصرى حتى انضمت اليه كل قطاعات التجار كبارهم وصغارهم وكل القبائل المتاثرة بالضرائب وسوء الاسلوب الذى تجبى به فهى فرصتهم الوحيدة للانتقام والاطاحة بالحكومة لانهم كانوا يفقدون القيادة التى توحد صفوفهم ضد عدوهم فوجدوها فى دعوة الامام المهدى .

الثورة المهدية :

مع ان موضوع هذا الكتاب عن بحر الغزال لا يتحمل التوسع فى الحديث عن المهدى ومرحلة المهدية كلها ـ إلا انه يبدو من المفيد ان نورد هنا تاريخا موجزا جدا يعين القارىء على فهم نشأة المهدية وامتدادها الى بحر الغزال وغيره من الاقاليم ويعينه على ربط الاحداث المسلسلة .

ولد الامام المهدى عام ١٨٤٤ م فى دنقلا ودرس القرآن فى قرية كررى شمال ام درمان ودرس الفقه على يدى الشيخ محمد الخير الغبشاوى بقريته (حلة الغبش) غرب بربر ثم تصوف وسلك الطريقة السمانية على يدى الاستاذ محمد شريف نور الدايم ثم اختلف معه وجدد عهد الطريقة على الشيخ القرشى ود الزين فى منطقة (الحلاوين) بالجزيرة .[1]

ولما كانت اسرته قد رحلت فاستقرت فى جزيرة ابا بالنيل الابيض فانه قد اتخذها مغارة للتعبد وخرج منها بتنظيم كامل لدعوة دينية شاملة وتخطيط دقيق لدولة دينية اسلامية لا تقف حدودها عند السودان وحده . وبدأ بالمنشورات ارسلها لكل انحاء السودان حاسمة ملتهبة لاشعال ثورة عارمة ضد الحكم المصرى والتركى فى السودان وارسل منشورات بتلك الدعوة لحاكم السودان فى الخرطوم فاستهان بالامر فى بادىء الامر ثم ارسل حملة عسكرية لحمله من ابا للخرطوم فابادها بانصاره وسلاحه البدائى فى ١٨٨١/٨/١٢ . . وكانت تلك هى الصرخة العملية الداوية التى لفتت اليه انظار الناس من كل مكان فى السودان .

---

(١) نعوم شقير

ثم انتقل المهدى بجيشه وعتاده الى ارض الله الواسعة غرب النيل الابيض نحو (جبال تقلى) داعيا وغازيا حتى استقر فى سفوح جبل قدير فتقاطرت اليه وفود الزعماء والرؤساء والتجار والقبليين وكل الحاقدين على الحكم المصرى كما ذكرنا وبايعوه على الجهاد فى سبيل الله وعلى تحرير البلاد . ولقد استطاع الامام المهدى فعلا ان يحول اتجاه الناس من المغامرات للنهب والكسب الى جهاد فى سبيل الله ومن حياة النزاع الى حياة التبتل والعبادة والطموح لنصرة الدين .

وكانت اقرب حامية عسكرية حكومية لمنطقة قدير هى حامية (فشودة) باعالى النيل التى راى مديرها (راشد بك) ان يغتنم الفرصة ليحقق انتصارا بسحق المهدية يعلو به ذكره ويجد به تقديرا وترقيا ولهذا ـ وبغير استشارة الحكومة فى الخرطوم ـ جرد جيشه النظامى وهو يضم مئات ومعه جيش اخر غير نظامى من قبيلة الشلك واتجه نحو المهدى فى قدير بطريقة سرية تعمد فيها ان يخفى زحفه ولكن امراة من قبيلة كنانة كانت قد رأت الجيش فاسرعت على بعير لها واخبرت المهدى الذى دبر لهم كمينا من جنبات الجبال فابادهم جميعا وكان راشد باشا اول القتلى وكان هذا الانتصار صرخة اخرى اشد دويا من المهدى لكل انحاء السودان بصحة دعواه وجدية تخطيطه واهدافه التى سجلها الامام المهدى فى ديسمبر ١٨٨١ م فجن جنون الحكومة القابعة فى الخرطوم وكاد الامر يفلت من يدها ولكنها رات ان ترمى بأخر سهم لها لتحطم المهدية فجمعت جيشا من مختلف حاميات السودان بلغ تعداده نحو اربعة آلاف جندى بقيادة يوسف باشا الشلالى بالاضافة الى امدادات انضمت اليهم من الابيض وبقية حاميات كردفان .

وتجلت العبقرية العسكرية مرة اخرى عند المهدى فصبحهم فجر يوم ١٨٨٢/٥/٣٠ م بهجوم لم تقم لهم بعده قائمة وقتل الشلالى باشا وكثير من رجالات الادارة الاهلية الموالين للحكومة وابيد الجيش كله وغنم المهدى سلاحه وعتاده ولم تعد للخرطوم مقدرة بعد ذلك لمواجهة الثورة الكاسحة . واندلعت الثورة فى كل مكان من السودان على ايدى الرجال الذين امرهم المهدى باشعالها وزحف المهدى نحو كردفان ففتح الابيض فى يناير ١٨٨٣ م وهزم جيش هكس باشا الذى ارسل من مصر فاباده فى نوفمبر ١٨٨٣ م وسلمت دارفور كلها حكومة وقبائل ووفدت للمهدى وبينهم (سلاطين باشا)

مديرها الذى اسلم واستسلم لان كل المنافذ قد سدت فى وجهه كما قال هو فى كتابه (السيف والنار) .

وزحف المهدى نحو الخرطوم التى كان قد ارسل جيوشه لحصارها فاقتحمها فى ٥ يناير ١٨٨٥ م وقتل غردون باشا الذى صمد رغم كل الفرص التى منحها له المهدى لينجو بنفسه ومن معه وسقط السودان كله تباعا فى يد المهدى ولم يبق للحكم المصرى فى السودان سوى حامية سواكن المحصنة .

لبتن بك فى بحر الغزال

مع ان جيسى باشا قد غادر بحر الغزال فى سبتمبر ١٨٨٠ م فان خلفه على إدارة المديرية لم يصل « واو » إلا فى آخر ١٨٨١ م . وخلفه هذا هو فرانك لبتن بك البريطانى الشاب الذى كان من تجار البحار المتجولين وعينه الجنرال غردون عام ١٨٧٨ م حاكما فى الاستوائية على اقليم (اللاتوكا) بشرق الاستوائية تحت رئاسة امين باشا مدير عام الاستوائية .

ووجد لبتن بك ان المشروعات الاقتصادية واجراءات الامن التى خططها سلفه جيسى باشا قد اهملت واختلت عن طريق سوء ادارة الموظفين الذين اشرفوا عليها كما وجد كثيرا من التجار الجلابة قد تحللوا من القيود التى كبلهم بها جيسى باشا وعادوا لمخالفاتهم للقوانين التى وضعت .

ولم يكن لبتن بك فى مثل قوة ادارة سلفه جيسى باشا فعجز عن الاخذ بزمام الامور فى بحر الغزال ومحاولة اعادة سيطرة الحكومة وكانت شخصية الزعيم الزاندى المستعرب (زيميو) اقوى من المدير وقد استعان بالموظفين الذين كانت ميولهم مع التجار العرب بسبب المنافع التى كانت تعود اليهم .

وفى اوائل ١٨٨٢ م ظهرت فى بحر الغزال طلائع اثار الثورة المهدية حين اعلن (السلطان جانقو) فى غرب بحر الغزال عصيانه وتمرده على الحكومة فى منطقته الواقعة على بعد مائة ميل غرب (ديم زبير) فهى بذلك تكون قريبة من دخول العرب وتسرب فكر الثورة المهدية لبحر الغزال ومن تاريخ هذا السلطان القريب انه كان عدائيا مع سليمان الزبير وقد امده الجنرال جيسى بالسلاح فصار شوكة فى جنب سليمان ومؤسساته فى الغرب .[1]

---

(١) السودان الجنوبى ـ ريتشارد جراى

ومن رأى (ريتشارد جراى) ان ثورة السلطان «جانقو» قد نشبت بتحريض من الشيخ (ماديو على) زعيم الرزيقات الذى كان يدعو لثورة المهدية فى الغرب والشيخ ماديو على ومعه الرزيقات وكثير من قبائل البقارة الاخرى مثل الهبانية وبنى هلبة والتعايشة والمسيرية كانوا على خلاف وعداء مع الحكومة المصرية ومع جيسى باشا بالذات على حدود بحر الغزال التى يفصلها عنهم بحر الغزال. وعند اعلان المهدى للثورة هاجر اليه الشيخ ماديو فى قدير واشترك معه فى ابادة جيش يوسف الشلالى وعاد الى اهله مفوضا بامارة من المهدى ومزودا بكثير من السلاح الذى غنمه المهدى من موقعتى راشد والشلالى.

وبدأ السلطان جانقو ثورته بقتل رجال الباشبزق التابعين للحكومة والاستيلاء على اسلحتهم مما دعا لبتن بك لتجريد حملة عسكرية ضده ولكن السلطان جانقو هرب والتحق بالشيخ ماديو الذى كان يحاصر حامية الحكومة فى (شكا). وعاد جانقو بذخيرة ومدد فى السلاح ولكنه انهزم عند اللقاء مع جيش الحكومة وخسر نحو ستمائة محارب من رجال غرب بحر الغزال.

ومن ناحية اخرى تمرد الدينكا على الحكومة ولبتن بك بصورة صغيرة فى بادىء الامر ولكنها سرعان ما شملت مناطق كثيرة. ويبدو أن الزعماء الروحيين عند الدينكا قد تاثروا فعلا بدعايات المهدية ضد قسوة الحكم المصرى التركى والضرائب التى يجبونها من البقر. وثورة الدينكا بدات بان قتلوا نحو خمس وسبعين من جنود الحكومة المكلفين بجمع الابقار من منطقة مشرع الرك وشحن سن الفيل الحكومية فى البواخر من ميناء المشرع.

واتسعت ثورة الدينكا ضد الحكومة بالقدر الذى اضطر لبتن بك الى استدعاء كل القوات النظامية من الغرب والشمال للوفود الى واو لمواجهات عسكرية ضد الدينكا. ومع ذلك فان الدينكا قد احتلوا مشرع الرك وقطعوا طريق الميناء على الحكومة. وفى الشرق اغار «الدينكا اقار» على حامية الحكومة برمبيك فى يوليو ١٨٨٣ م وابادوا كل من فيها من قوات الحكومة وهناك فى الشمال ثار الدينكا طوال وعصوا الحكومة وقتلوا سرية عسكرية كان على راسها (رفاى انما) اليد اليمنى فى الحكم للبتن بك والذى كان

يعتبر اهم اعوانه للعمل الميدانى وبذلك فان لبتن بك قد انحصر فى وسط بحر الغزال بين ثورة فى الغرب واخرى فى الشرق وثالثة فى الشمال انعزل عن اهم موانىء المديرية وهى مشرع الرك وعن الوصول للنيل وميناء شامبى بسبب ثورة «الدينكا اقار» فى رمبيك.(١)

واستفاد الدينكا كثيرا من السلاح الذى انتزعوه من الحاميات العسكرية والسرايا التى كانت تجوب بلادهم وابادوها وغنموا اسلحتهم وتعلم بعضهم طريقة استعمال السلاح النارى.

وكيل للمهدى :

واكتشف «لبتن بك» ان تمرد الدينكا قد امتد شمالا وشرقا حتى شمل بعض (النوير) الذين ساعدوا الدينكا فى عصيانهم المسلح كما اكتشف ان الزعيم الدينكاوى (ماينوت) قد اعلن نفسه وكيلا للمهدى ضد الحكومة المصرية وقد اظهر ذلك برفعه (للعلم الاخضر) الذى ارسله له المهدى. وقال (ريتشارد جراى) ان بعض الزعماء الروحانيين (الكجور) فى دار النوير قد استمدوا تعليماتهم الروحية من المهدية لمواجهة الحكم المصرى.

ويبدو ان هذا التوافق الروحى بين المهدية والدينكا والنوير كان مرحليا مؤقتا بغرض الخلاص من الحكم المصرى التركى ولم يكن توافقا له جذور من العقيدة الملزمة باستمرارية التبعية على طريقة «ان المصائب يجمعن المصابينا».

والعرب من الناحية الاخرى لم يكن لديهم التفكير السياسى الذى يقودهم الى الاستفادة من الوحدة مع الدينكا لغرض مشترك وهدف وطنى سامى لانهم - رغم اشتراك الدينكا لمصلحتهم - ظلوا يهاجمون الدينكا من نواح اخرى بغرض الاسترقاق بل ان الرزيقات بقيادة الشيخ ماديو كانوا فى عام ١٨٨٣ م ياربون الدينكا على بحر العرب بدلا من ان يهاجموا مرافق الحكومة بالرغم من بيعتهم للمهدى واتجاههم الدينى الجديد وبالرغم من ان الامام المهدى لم يأمر بذلك ولم يكن من اهدافه واغراضه بدليل ان المهدى قد اعطى البيعة لزعيم الشلك فى «قدير» وامره ان يهتم بنشر الدعوة بين اهله ويعلن الثورة على الحكومة فى اعالى النيل.

---

(١) سانت اندريا

وانكر ان (الرث كور فافيتى) قد قال لى فى ملكال عام ١٩٥٦ انه يحتفظ حتى الآن (بالجبة) المرقعة التى اهداها المهدى لجده سلطان الشلك فى قسير بعد هزيمة جيش راشد بك فى ديسمبر ١٨٨١ م وذلك دليل على ان المهدى كان يتلمس عون القبائل له فى رسالته ضد الحكم المصرى التركى سواء كانت قبائل مسلمة او وثنية . اما اتباعه من القبائل البدائية العربية فانهم لم يلتزموا بمضمون الرسالة الدينى او السياسى او الوطنى .

ولما استحكمت حلقات الضيق على بحر الغزال وحاكمها لبتن بك جاءهم الانقاذ من مدد ارسله امين باشا من « اللادو » فاستعاد رمبيك من الدينكا الثوار الى حظيرة الحكومة وانقذ واو نفسها من الانتفاضات المجاورة وساعدت فى هزيمة السلطان (جانقو) وقتله فى غرب بحر الغزال . ومع هذا المدد توالى العون بالمؤن الغذائية الى واو من السلطان زيميو بدار الزاندى فشعر لبتن بك واعوانه فى اواخر ١٨٨٣ بان الامور قد عادت بعض الشىء الى استقرارها وان الامل لاح بأن تنتهى حملات المقاومة وتبدأ عمليات الانشاء والتعمير بالنسبة للمديرية ذات الخيرات التى غرقت فى الدماء فترة طويلة بسبب التمرد والتمزق فى معظم انحاء الاقليم . ومع ان لبتن بك قد شعر بما لا يدع مجالا للشك ان السودانيين العرب والمستعربين معهم من اعوان الجلابة القدامى قد انتسبوا بوضوح للثورة المهدية التى تغلى مراجلها فى كردفان وبخاصة بعد فتح الابيض – فان لبتن بك قد رأى ان لا يبطش بهم خشية ان يلفت اليه نظر الثورة المهدية التى يرى انها مشغولة بمهاجمة الحكومة فى الشمال وحده وان بحر الغزال قد لا تكون مرصودة فى حسابات المهدى .

كرم الله كركساوى :

ولكن لبتن بك حاكم بحر الغزال لم ينعم كثيرا بهدوء البال واستقرار الاحوال لان الثورة المهدية قد استفحل امرها وتوالت انتصاراتها ودلت تحركاتها بانها لن تقف عند حد داخل حدود السودان ولا حتى خارج حدوده .

وبالرغم من الوضع الجديد المريح لبريطانيا فى مصر بعد ان اعلنت الحماية عليها عقب الانتصار على ثورة عرابى فى ١٨٨٢ م فان الجيش العرمرم الذى

ارسلته مصر الى السودان ويبلغ تعداده ، عشرة الاف مقاتل تحت قيادة الجنرال الانجليزى هكس باشا – هذا الجيش اللجب الذى عبر الصحراء من الدويم للابيض من غيره خبرة بالطرق وموارد الماء قد تعرض للعطش ولما وصل ارض المعركة فى (شيكان) كان منهارا ومشتتا فقضى عليه المهدى فى ساعات معدودة وغنم كل ما كان معه من سلاح وعتاد وقتل الجنرال هكس وكل الضباط وكل الجنود ما عدا حفنه قليلة ابقى عليها طول الاجل فوقعت فى الأسر . وعاد المهدى عقب انتهاء المعركة يوم ٥ نوفمبر ١٨٨٣ م الى الابيض منتصرا مظفرا .(١)

وكان كرم الله كركساوى احد مشاهير تجار بحر الغزال من ابناء الدناقلة واحد المحاربين فى هزيمة هكس باشا فى شيكان فاقترح على المهدى ان يمده بجيش مسلح لضم بحر الغزال لانتصارات المهدية فتم له ما اراد وتحرك بجيش يبلغ نحو الخمسة الاف مقاتل من المتوقين للجهاد بعد نشوة الظفر المتوالى لثورة المهدى . ولما دخل الجيش الى بحر الغزال تفرق الناس عن الحكومة ونصرتها وبقى لبتن بك مع نفر قليل لا يستطيعون قمع اى تمرد فضلا عن مواجهة جيش كبير منظم ومسلح ولم يكن له بد من التسليم التام لكرم الله كركساوى الذى اخذه اسيرا فى يوم ١٨٨٤/٤/٢٨ م . وقد جاء فى رسالة من لبتن بك الى امين باشا مدير الاستوائية فى « اللادو » اثبتها (ريتشارد جراى) فى كتابه قوله لأمين باشا :

« لقد انتهى الأمر بالنسبة لى هنا . كل اتباعى التحقوا بالمهدى وسيستولى جيشه على المديرية بعد باكر وعليك انت ان ترى طريقا لهربك ونجاتك لأن جيشا مسلحا من ثمانى الى عشرة آلاف فى طريقه اليك » .

وكما ذكرنا من قبل فان الحكم المصرى التركى لم يكن له انصار فى بحر الغزال على الاقل فى مرحلة حكم لبتن باشا بدليل الثورات التى اندلعت ضده من غرب بحر الغزال وشرقه وشماله ولهذا فان انصراف القبائل عن نصرته والتحاقهم بجيش المهدى بقيادة كرم الله لم يكن مستغربا حتى بالنسبة للبتن بك نفسه . واذا ضاق المحكومون ذرعا بعهد كرهوه فانهم تلقائيا سيرحبون باى عهد جديد ياتى غازيا لعلهم يجدون فى كنفه ما كانوا يفقدون فى سابقه .

---

(١) نعوم شقير

ولان كرم الله كركساوى كان تاجرا متمرسا وحاكم اقليم سابق في بحر الغزال قبل تعيين جيسى بك فانه يعرف قوانين الحرب التى تعارفت عليها الامم تقليدا فلم يصب لبتن بك باى ضرر بعد تسليمه وان لم يرض بالدخول في الاسلام لان تلك مسالة شخصية وارسله مع بعض الغنائم للمهدى في كردفان وظل لبتن في السجن طوال المهدية .

الامير الختيم موسى :

ذكرنا ان احتلال المهدية لبحر الغزال لمدى قصير في ١٨٨٤ / ١٨٨٥ م على يد الامير كرم الله كركساوى الذى كان خبيرا بالمنطقة واهلها قد خلق لها انصارا في غرب بحر الغزال بالذات وقد كان في الامكان تنمية العلاقات الى مدى اوسع مع القبائل الاخرى لو ترك كرم الله ينظم ادارة ثابتة باسم المهدية هناك .

ومن اهم ما يجب ان يذكر هنا ان قبيلتى (فروقية والقولقلين) متجاورتان ومتحالفتان غير ان (فروقيه) كانوا ضد المهدية بينما ظل (القولقية) انصارا للمهدية لفترة طويلة بعد جلاء كرم الله عن كردفان ولكن عدم اهتمام المهدية بالمنطقة واخبارها جعل القبيلتين يعودان مرة اخرى الى حلف وتعاهد يقرران به الدفاع عن اوطانهما ضد اى غارات محتملة من الشمال على يد امراء المهدية ولكن لم يحدث ان اغارت اى سرية من المهدية على بحر الغزال من الغرب حتى عام ١٨٩٥ م .

في عام ١٨٩٥ غزت القوات البلجيكية بحر الغزال متوغلة الى شمالها الغربى وتسربت الاخبار عن طريق دارفور الى الخليفة عبد الله بأن البلجيكيين احتلوا بحر الغزال ووصلوا الى حفرة النحاس وخضعت لهم كل القبائل هناك . ولأن طبيعة مثل هذا الغزو تدعو الى التخوف من توسعه وامتداده الى جنوب دارفور وكردفان ـ فان الخليفة عبد الله قد اهتم كثيرا بالامر فأصدر أمره لحملة عسكرية كبيرة وسريعة لرد البلجيكيين على اعقابهم ولتعيد بحر الغزال الى حظيرة المهدية[1] .

---

(١) سانت اندريا

الحملة :

وكان الختيم موسى وهو من كبار امراء التعايشة على راس جيش كبير ومسلح في منطقة جنوب كردفان عندما وصلته التعليمات بان يزحف على بحر الغزال فدخل عن طريق (شكا) بدار الرزيقات الى شمال غرب بحر الغزال . ومع ان القبائل كانت قد استسلمت للبلجيك الا انهم لم يجدوا منهم من يحميهم من غزو المهدية ولم تكن لهم من انفسهم قوة يواجهون بها الامير الختيم موسى فسلمت له قبائل فروقية وكارا وبونقو بغير شرط او قيد .

وقد روى « سانت اندريا » في كتابه « قبائل غرب بحر الغزال » على لسان سلاطين باشا الذى كان اسيرا عند الخليفة بام درمان قوله استدعاني الخليفة عبد الله ذات يوم ودفع الى بعدد من الوثائق مكتوبة باللغة الفرنسية وطلب منى ترجمتها الى العربية . وكان من بين تلك الرسائل او الوثائق رسالتين من الضابط البلجيكى « كيثوللى » فيها اوامر وتعليمات ارسلت لشيخ قبيلة (فروقية) فسلمها للامير الختيم موسى . وكان منها صورة معاهدة موقعة من القائد البلجيكى والسلطان حمدود موسى زعيم (فروقية) تحوى الاعتراف بسيادة البلجيك على ارضه وقد شهد بتوقيعه على المعاهدة السلطان (زيمبو) الزاندى والسلطان (تيقا) .

والواقع ان السلطان حمدود موسى عندما لم يجد من البلجيك ما يمكن ان يحميه من جيش المهدية سلم اوراقهم والمعاهدة للختيم موسى والذى جعله منتدبا من حكومته المهدية ليرعى مصالح الناس باسمها وحكمها الاسلامى .

ومع اننا لم نجد من الوثائق ما يثبت بأن جيش المهدية بقيادة الختيم موسى لم يفعل شيئا بعد أن سلمت له القبائل الا ان كتاب « قبائل غرب بحر الغزال » قد ذكر في صفحة ١٧٦ بأن من قابلهم (سانت اندريا) من كبار السن في غرب بحر الغزال رووا له بان حملة الختيم موسى وغاراته كانت بالغة الضرر بالدماء التى سفكت من الاهالى الذين هربوا للغابات خوفا من القتل والعذاب وقال ان كل اطفال سلطان (منقا) واسمه (كابندى) قد قتلوا .

وقال ايضا انه لحسن حظ قبائل غرب بحر الغزال ان الخليفة عبد الله ارسل اوامر للامير الختيم بان يسرع لنجدة الامير محمود احمد في دارفور

ضد ثورة قامت هناك . وقال ان الختيم اخذ معه كثيرين من قبيلة (فـروقية) ورجالها كاسرى وذكر منهم سبيل ادريس ابن اخت السلطان حمدود مـوسى وابن السلطان نفسه وهو فيما بعد السلطان (فرتاك) المشهور الذى قال انه جرح اخيرا فى موقعة كررى .

ومما نعرف من حدوث عداوات بين (فروقية) القبيلة المسلمة وبين رجالات التبشير فى غرب بحر الغزال فانه لابد ان نأخذ ما كتبه « سـانت اندريا » عن قسوة الختيم موسى وعن (فروقية) بحذر وشك لانه حسبما ذكر قـد جمعـه مما رواه شفاهة بعض من التقى بهم من كبار الســن الذين عاشـوا غارات البلجيك والمهدية فى فترة ١٨٩٤ / ١٨٩٥ م .

ومرة أخرى نتساءل لماذا رحل جيش الختيم مـوسى لدارفـور مـن غير ان يترك ادارة للمهدية وسرية تقوم بحماية الديار التى افتتحوها مرتين واخلوها مرتين فى مدى عشر سنوات بين ١٨٨٥ / و ١٨٩٥ م .

الفصل الخامس

حكومات اجنبية إبان المهدية

حكومات اجنبية إبان المهدية

الغزو البلجيكى :

بعد ان استعمرت القوات البلجيكية اقاليم الكنغو فى عام ١٨٩١ وتركزت هناك عسكريا وضعت خطة التوسع الاستعمارى الى الشمال فى داخل السودان . وعبرت فصائل القوات البلجيكية منطقة امبومو «MBOMO» شمالا كجزء من الخطة ووضع قواد البلجيك سياسة استرضاء واستقطاب مختلف سلاطين المناطق الزاندية فى جنوب غرب السودان على اساس دعمهم فى مراكزهم القبلية بسلطاتها واستعمار البلاد على القمة .[١]

وكان المنتظر من مثل هذه السياسة التى تحمل فى طياتها اغراءات للسلاطين وبخاصة صغار السلاطين الزاندى وغيرها لما فيها من حماية لهم ولكن الذى حدث هو ان تلك السياسة لم تنجح فى نهاية المطاف .

استطاع البلجيكيون فى عام ١٨٩٢ ان يحصلوا على اتفاقيات تحالف وتعاقد فى منطقة امبومو مع اكبر اثنين من السلاطين هما السلطان رفاى والسلطان زيموى واغدق عليهم البلجيك بالسلاح والمعدات . وعمل السلطان رفاى كوسيط أو سفير بين البلجيك وسلاطين القبائل فى الغرب من بحر الغزال ونجح فى الظفر بحلف زعيم واسع النفوذ وقوى الشكيمة هو السلطان بنداس سلطان قبيلة (كريش) كما نجح بنداس بدوره فى اقناع سلاطين قبائل اخرى للدخول فى الحلف املا فى حماية البلجيك لهم . ثم امتد غزو البلجيك الى قبيلة (البندا) فى اقصى الغرب واتفقوا مع سلطانها .[٢] وبذلك يكون الغزو البلجيكى قد تغلغل فى اقصى زاوية لمديرية بحر الغزال فى الشمال الغربى . ومن ثم اراد البلجيكيون رفع اعلامهم فى الغرب المباشر لبحر الغزال وكان سلطان (الفروقى) الفكى احمد موسى وسلطان قبيلة (القولقية) واسمه حجر قد حنجرا وضاق ذرعا من غارات سرايا المهدية وفكر بالتضامن فى وجوب حماية البلجيك لهما مما سهل مهمة التفاهم ليدخل منطقة راجا البلجيكيون وفكروا فى ارسال سرايا عسكريا للمنطقتين ولكن قامت عقبات . . منها ان البلجيك ارسلوا جانبا من جنود السلطان (زيموى)

---

(١) ارض وراء الأنهار ـ روبن كولن

(٢) سانت أندريا

وبينه وبين السلطان حجر عداوة قبلية تقليدية لا تقبل التسويات فسحب القائد البلجيكى جنود (رزيموى) وسار فأسس مركزين احدهما فى بلدة (فيفى) التى كانت مركز قيادة فى الحكم التركى للجنرال جيسى باشا وتقع على بعد أميال الى الشرق من (خو شمام) والمركز الثانى على نهر (بورو).
ومع ان المركزين كانا يجدان الحماية من السلاطين احمد الفكى موسى وحجر الا أن مؤمرات التمرد قد بدأت من الوطنيين فى غرب راجا وشرقها ومن منطقة ديم زبير وصار الامر غير مستتب ولم تستطع الحاميات البلجيكية مغادرة تحصيناتها.

وفى حوالى نهاية ١٨٩٤ تسامع الناس بان جيش المهدية بقيادة الامير الختيم موسى قد عبر بحر العرب فى طريقه الى غرب بحر الغزال وكان كثير من قبيلة الفروقى والكريش يميلون لنصرة المهدية فاكفهر الجو على السرايا البلجيكية وسلاطين القبائل لان المهدية لا تعترف بنظام السلاطين.
ولكن حدثت فى نفس الوقت مفاجأة غير متوقعة وبأسباب سياسية محضة ذلك ان حكومتى فرنسا وبلجيكا قد وقعتا اتفاقا فى اوربا يقضى بأن يتم جلاء الحاميات البلجيكية عن اراضى السودان الى حدود منطقة (امبورو)، وتركها جميعا للفرنسيين ولذلك اسرعت السرايا البلجيكية بمغادرة غرب بحر الغزال من كل المراكز التى اسستها.

هذا ويجب ان نذكر بان بلجيكا لم تستطع اخضاع سلطان الزاندى الجبار (يامبيو) الذى قاومهم وردهم مرارا على اعقابهم رغم كل الاغراءات التى ضاعفوها له وسيجد القارىء سيرة السلطان يامبيو كاملة مع قوات الحكم الثنائى فى فصل آخر من هذا الكتاب كما سيجد تفصيلا لقصة السلطان طمبرة مع الحكم التركى والمهدية والحكم الثنائى.

الغزو الفرنسى

ذكرنا فيما كتبنا عن الغزو البلجيكى ان اتفاقية تمت فى اوروبا عام ١٨٩٤ بين فرنسا وبلجيكا على ان تنسحب القوات البلجيكية التى احتلت مناطق فى بحر الغزال الى الكنغو تاركة مراكزها للغزو الفرنسى الذى خطط لجعل بحر الغزال امتدادا لمستعمرتها « افريقيا الوسطى ».

والحقيقة أن بحر الغزال بعد هزيمة الحكم التركى المصرى فيها على يد الامير كرم كركساوى قائد القوات المهدية واسره لحاكمها البريطانى (لبتن بك) – قد عاشت فى فراغ كامل بعد انسحاب الامير كركساوى بأمر من الخليفة عبد الله عقب وفاة الامام المهدى مباشرة فى يونية ١٨٨٥ م.
وعادت القبائل الى حكم سلاطينها والى النزاع بين بعضها البعض فصارت بذلك مكشوفة للاستعمار الاوربى الفرنسى والبلجيكى يحتلون ماشاءوا من المناطق بتوافق انفرادى مع السلاطين وباستعداء بعضهم على بعض. ولهذا فان فترة المهدية بين سقوط الخرطوم عام ١٨٨٥ م وسقوط ام درمان فى عام ١٨٩٨ م كانت فترة متاعب وعدم استقرار ولبحر الغزال التى تجاذبتها الايدى الاستعمارية وضاع بسبب ذلك كثير من المواطنين كضحايا لطمع الغزاة وطموح السلاطين فى مختلف القبائل والمناطق.
تحرك الفرنسيون من حدود افريقيا الوسطى فاحتلوا المناطق الواقعة شمال منطقة (امبومو) من مناطق الزاندى ثم زحفوا شمالا ببطء وحذر ريثما يقيمون حكما فى الاماكن التى احتلوها ولكن حكمهم قد اتسم فى عمومه بالفشل. ولكن الحكومة الفرنسية فى عاصمتها باريس قد وضعت خطة غزو شامل لبحر الغزال ومنه الى الشمال الشرقى نحو النيل الكبير وقد اسند تنفيذ وقيادة تلك الخطة العسكرية الى ضابط شاب هو الكولونيل مارشاند الذى خلد نفسه فى تاريخ السودان بحادث (فشودة) المعروف مع اللورد كتشنر عقب موقعة كررى فى سبتمبر ١٨٩٨.[١]
وبدأ مارشاند بتأسيس حامية عسكرية فى (طمبرة) فى اواخر ١٨٩٧ م. ثم تحرك نحو واو فأسس فيها حامية وطابية لازالت آثارها موجودة حتى الان – بالقرب من المديرية واسمها (طابية ديسكس) (FORT DESAIX)[٢] ومن واو تحرك بالسرايا الفرنسية الغازية الى التونج وامقولو وشاكشاك فى الدينكا فى ١٨٩٨ م. ومن هناك تحرك الغزو الفرنسى نحو النيل حتى حط رحاله فى سبتمبر فى شاطىء فشودا شمال غرب ملكال ورفع الاعلام كدلالة للاحتلال ولكن حدث ان دخل جيش الحكم الثنائى للسودان من شماله فاتحا وبعد هزيمة جيوش المهدية تحرك لورد كتشنر الى حيث وصل الكولونيل

(١) مصر والسودان – الدكتور احمد فؤاد شكرى

(٢) سانت اندريا

مارشاند الفرنسى فى أعالى النيل وبعد مفاوضة استكملت فى اوروبا بين بريطانيا وفرنسا تم انسحاب الكولونيل مارشاند شرقا الى اثيوبيا عن طريق نهر السوباط . وكنتيجة لتلك المفاوضات التى مثلت بريطانيا فى اثنائها دور المدافع عن حقوق مصر فى السودان الذى احتلته ثورة المهدية لفترة مؤقتة تعتبر فترة اضطرابات وخروج على القانون على حد قول الانجليز والمصريين ـ كنتيجة لتلك المفاوضات انسحبت كل الحاميات الفرنسية من طمبرة وواو والتونج وغيرها مثل ما انسحب مارشاند من فاشودة.[١]

والواقع ان احتلال الفرنسيين لم يقتصر على جنوب ووسط بحر الغزال بل ان القوات الفرنسية توغلت فى غرب بحر الغزال حتى وصلت (راجا) ووضعت كل البلاد الواقعة على ذلك الاقليم الممتد طويلا نحو الغرب تحت سيطرتها ونفوذها وقد سلم بالولاء كل سلاطين الفروقية والكريش وغيرهم ولكن النفوذ الفرنسى بين توغله وانسحابه بعد الفتح الانجليزى المصرى لم تزد مدته عن اربع سنوات ولكنها تركت بصماتها فى اهل بحر الغزال لمدة طويلة .

السنوسى :

هذا الاسم لا علاقة له بالاسرة السنوسية فى شمال افريقيا وانما هو اسم لمغامر يحتمل ان يكون من البرنو اسمه الاصلى احمد ابكر من منطقة افريقيا الوسطى وكان قد تعاون مع رابح الزبير الذى كان يعتبر اهم قواد الزبير باشا رحمة ثم ابنه سليمان الزبير ولكنه اختلف مع سليمان قبل معركته مع جيسى باشا وغادر ديم زبير بمن تبعه من رجال سليمان الزبير المحليين واتجه غربا بحفرة النحاس وكفياكنجى وتبعه كثيرون فى غزوه لغرب افريقيا وكون فى افريقيا دولة وسلطنة وتوسع فاقتحم شاد واصطدم هناك بجيوش فرنسا الغازية فى مواقع حاسمة وقتل اخيرا فى فورت لامى وانهارت سلطنته بعد ان غطت منطقة واسعة صارت كلها بعد مقتله تحت النفوذ الفرنسى .

واحمد ابكر هذا او (السنوسى) بالرغم من انه خضع فعلا لسيطرة رابح الزبير الا انه ابتعد عنه بعيدا نحو الشرق وكون له سيطرة ونفوذا فى « دار كوتى » ودار « بندا » وتوغل فى غرب بحر الغزال بالرغم من مقاومة بعض القبائل الصغيرة لمسيرته . ولكنه فى معركة مع سرية فرنسية استطاع ان يقتل القاضى (كرامبل) الفرنسى ويدحر قوته ويتسلح من عتادها وما غنمه من اسلحة حديثة وذخيرة .

(١) مصر والسودان ـ دكتور احمد فؤاد شكرى

الفصل السادس

بحر الغزال وأزمة فاشودة

بحر الغزال وازمة فاشودة

حادث فاشودة وهو احتلال الجيش الفرنسى لفاشودة عاصمة أعالى النيل السابقة بعد احتلال بحر الغزال ، امر معروف للقراء بصورة عامة لانه مرتبط بانتصار الحكم الثنائى على جيش المهدية فى كررى وباللورد كتشنر الذى واجه الحادث بالاسلوب العسكرى والسياسى الدبلوماسى .

واهمية الحادث بالنسبة لهذا الكتاب هى ان احتلال الفرنسيين لفاشودة ومنطقة الشلك غرب النيل قد كان امتدادا لاحتلالهم لمديرية بحر الغزال وسيرد فى التفاصيل العسكرية والسياسية مما سنذكره هنا كثير مما كنا نحتاج لمعرفته من معلومات لا اظن خاصة السودانيين يعرفون عنها شيئا كثيرا ناهيك عن عاصمتهم .

وكما رجعنا فى قضية « حاجز اللادو » الى كتاب « مصر والسودان » للدكتور محمد فؤاد شكرى كمصدر ذى وثائق هامة فى الموضوع ـ فاننا نعود الى نفس المصدر الذى طرح كل تفاصيل ودقائق الاحتلال الفرنسى وحادث فاشودة لننشر هنا القصة الكاملة كتاريخ هام لبحر الغزال فى مرحلة صغيرة من مراحل تاريخ تلك المنطقة :

قال الدكتور / محمد فؤاد شكرى فى الصفحة ٤٦٨ من كتابه : ـ « غادر كتشنر الخرطوم فى العاشر من سبتمبر ١٨٩٨ بطريق النيل الابيض فوصل الى خارج فشودة فى ٢١ سبتمبر ووجد ان الكولونيل مارشان قد سبقه الى احتلالها منذ العاشر من يوليو ورفع العلم الفرنسى عليها وفى ٢٢ سبتمبر رفع كتشنر العلم المصرى على سارية تبعد نحو مائتى ياردة عن العلم الفرنسى الى الشمال ثم بدأت الازمة بين انجلترا وفرنسا وهى ما يسمى « ازمة حادث فشودة » التى نالت شهرة واسعة فى ذلك الحين ولا تزال لها اهمية فى تاريخ استرجاع السودان » .

« واهمية حادث فشودة تنحصر اولا فى انه كان احد مظاهر المنافسة الشديدة انذاك بين انجلترا وفرنسا على استعمار افريقيا وعلى تأسيس مناطق النفوذ فى حوض النيل الاعلى على حساب حكومة الدراويش « يعنى

المهدية » او على أنقاض تلك الحكومة بعد زوالهـا . وهـي كذلك مـظهر من مظاهر النزاع الفرنسى الانجليزى فى المسألة المصرية عندما عارضت فرنسا احتلال بريطانيا لمصر وارادت من ارسال « مارشان » الى النيل عند فشودة اثارة المسألة المصرية والضغط على بريطانيا بالدرجـة التى تجعلهـا تقرر انهاء الاحتلال والجلاء عن مصر » .

« ووجه الاهمية الثانى لحادث فشودة هـو ان الاصطدام الذى وقـع بين الانجليز والفرنسيين بسبب ذلك الحادث اثار على نطاق واسع مسألة حقوق السيادة للفصل اولا فيما اذا كان الخليفة عبد الله قد انشأ دولة لها كل حقوق السيادة على الأراضى الداخلة فى نطاقها . وعلى فرض ان الامر كذلك – فيما اذا كانت بعض هذه الاراضى قد بقيت ضمن املاكه اوانها خرجت من حوزته فعلا وبذلك صارت ارضا لا يملكها احد أو ملكا مباحا » .

« ثانيا : للفصل فيما اذا كانت نظرية الملك المباح هـذه انمـا تطبق على كل السودان بما فى ذلك الاقاليم مـوضع النزاع فى حـوض النيل الأعلى وبحر الغزال . على اعتبار ان دولة مالم ينشئها المهديون اطلاقا ولا وجود فى عرف القانون الدولى لكيان خاص بهم وان السودان قد صار ملكا مباحا بمجرد ان اخلاه المصريون وانتهت حكومتهم فيه ففقدوا بذلك حقوق السيادة التى لهـم على تلك الاقطار » .

« ثالثا : أو فيما اذا كان لايمكن بتاتا اعتبار السودان ملكا مباحا . او ارضا متروكة لان المهدية حركة ثورية اغتصبت السلطة مـن الحـكومة الشرعية فى البلاد . وان اتفاقا مالم يحصل بين الحكومة المنسحبة « مصر » وبين الثورة المهدية بعد نجاحها مما يثبت معنى الاعتراف بها ويضـفى عليهـا الصـبغة الشرعية . وان كل الأثر الذى ترتب على اخلاء المصريين للسودان ان حقوقهم فى السيادة عليه قد صارت معطلة معه فقط ولا مانع من استئناف ممـارستها « تلقائيا » بمجرد زوال الاسباب المعطلة لها . وهى فى هذه الحالة زوال المهدية وانهاء حكم الخليفة للسودان » .

« رابعا : واخيرا فيما اذا كانت مصر قد عادت فقـط تمـارس حقـوقا فى السياده على السودان بسـبب اسـترجاعها لهـذه البلاد نتيجـة للعمليات العسكرية التى انتهت بالفتح الجديد ومعنى هذا ان السيادة التى كانت لمصر

على السودان قد انتهت بالفعل بمجرد اخلائها له سـواء اعتبرنا ان المـهدية اقامت دولة فى السودان ام ان السودان صار ملكا مباحا . واستنادا على حق الفتح هذا يحق لبريطانيا الان وهى التى ساهمت بالمال والرجال فى استرجاع السودان ان تمارس هى الاخرى بالاشتراك مـع مصر » . او بتعبير ادق مـع الباب العالى صاحب السيادة الشرعية على مصر « حقـوقا فى السـيادة على السودان » « تلك كانت المسائل التى اثارها حادث فاشودة وهى مسائل سوف تتضح من دراسة تفاصيل الحادث نفسه » .

« لقد بدأت فرنسا ووزير خارجيتها (هانوتو) فى غضون ١٨٩٤م و ١٨٩٥ بان رفضت فكرة او نظـرية (الملك المباح) واكدت ان حقـوق السـيادة التى للخديوى ولسلطان تركيا لازالت قائمة بالرغم من اخلاء السودان وعلى هـذا الاساس عارضت فرنسا المعاهدة الانجليزية الكونغـولية التى عقـدت فى ١٢ مايو ١٨٩٤ م وعلى هذا الاساس ايضا ظلت فرنسا معترفة بحقوق الخديوى والباب العالى على السيادة عندما قـررت فى نوفمبر ١٨٩٤ م بعثة «ليوتار» . وقال « هانوتو » فى خطاب له امام مجلس الشيوخ الفرنسى فى ٥ ابريل ١٨٩٥ فى معرض الحديث عن اعتراض انجلترا على توغل الفرنسيين فى بحر الغزال ومحاولتهم الوصول الى النيل الاعلى قال – (عندما يحين الوقت للفصـل فى مصير هذه الاراضى البعيدة نهائيا اعتقد انه بينما نحصل على احترام حقوق السلطان والخديوى وبينما نحتفظ لكل انسان بما يخصه حسب الاعمال التى قام بها تستطيع امتان عظيمتان مثل فـرنسا وانجلترا العثور على الصـيغة المناسبة التى يتم بها التوفيق بين مصالحهما . » « ولكن فى السنوات التى تلت ١٨٩٥ م ، لم تلبث ان تغيرت السيادة الفـرنسية تغيرا كبيرا عندمـا شـهد الفـرنسيون ان الانجليز يتوغلون فى اراضى اوغندا وانيورو ويعقـدون المعاهدات مع البلجيك كما حدث فى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ م . بتأجير حاجز اللادو لولاية الكونغو* الحرة ومع الطليان الذين احتلوا كسلا فى يوليو ١٨٩٤ م ثم قرروا ارسال حملة غزو دنقلا لمحاولة الوصول للنيل الاعلى مـن الشـمال بدلا من الزحف اليه من أوغندا حسبما كان يتوقع الفـرنسيون ودل ذلك على ان الانجليز يعتبرون السودان ملكا مباحا لا حقوق لاحـد فى السـيادة عليه . وتارة يتمسكون بحقوق السـيادة لمصر وتركيا عليه ليخـدموا مصـالحهم فى الحالين وليعطلوا المصالح الفرنسية . ولذلك قر راى فرنسا على ان يكون لها

نصيب فى اقتسام الأملاك التى اخلاها المصريون فى السودان . وعلى ضوء تلك الاعتبارات صدرت التعليمات النهائية فى ٢٤ فبراير ١٨٩٤ للكولونيل (مارشان) « وعندما نشبت ازمة ١٨٩٨ م استند الفرنسيون فى رفع العلم الفرنسى على فشودة على نظرية « الملك المباح » (وكان هانوتو) نفسه يؤيد تلك النظرية على ان اعتبار السودان « ملكا مباحا » يبيح لفرنسا ان تقتطع لنفسها ما تشاء من اقاليمه . وكان هذا من اسباب ارسال الكولونيل (مارشان) لغزو بحر الغزال واعالى النيل وكان نجاح (مارشان) فى الوصول الى النيل « فاشودة » قبل الانجليز يرجى منه ان يكون سببا لمراجعة فرنسا للانجليز بشأن احتلال مصر . »

« تلك اذا كانت الاعتبارات التى تفسر نشاط (ليوتار) الفرنسى حاكم الاوبانجى العليا الذى عاد من اجازته فى باريس الى الاوبانجى بعد بضعة شهور ليبدأ نشاطه فاحتل (زميو) فى ١٠ يوليو ١٨٩٥ م واكتسب ثقة الاهالى وشرع يتوغل صوب بحر الغزال حتى وصل طمبرة فى فبراير ١٨٩٦ وعقد معاهدة مع سلطانها ثم اتجه الى ديم زبير ليفتح طريقا الى بحر العرب وبذلك يكون (لوتار) قد تجاوز حوض الكونغو ودخل الأقاليم المصرية فى بحر الغزال . »

« وتلك الاعتبارات تفسر ايضا نشاط (مارشان) الذى غادر فرنسا فى ٢٥ يونيو ١٨٩٦ م الى الكنغو الفرنسية فوصل الى لوانجو فى ٢٢ يوليو وقصد الى برازافيل على نهر الكنغو وتتبع مجرى النهر فى مسيرة شاقة حتى وصل مريضا الى (لوديما) فى ٢٥ سبتمبر وهى تبعد بمسافة خمسين كيلومترا عن برازافيل ثم غادرها فى اول مارس فوصل الى (بنجوى) فى أول ابريل وكان ينتظره هناك مندوب من (ليوتار) وفى ٣ اغسطس ١٨٩٧ م وصلت البعثة الى (زميو) وكان (ليوتار) قد فتح طريقين احدهما الى الشرق وهو طريق (زميو – طبره) والاخر الى الشمال وهو يقود الى (ديم زبير) التى احتلها (ليوتار) فى ابريل ١٨٩٧ م . ولذلك كان على مارشان ان يختار احد هذين الطريقين فاختار بمشورة (ليوتار) طريق (زميو) وفى ٨ اغسطس اعتلى (ام بومو) احد نهيرات الاوبانجى من فروع روافد نهر الكونغو ويمر على اقليم بحر الغزال فوصل الى (ادا) فى ١٢ سبتمبر واسست البعثة او الحملة ثلاث محطات أو مراكز فى كودجالى والشلالات ومحطة فورت ديسكس وهو

اسم لمدينة (واو) عاصمة بحر الغزال الآن . واسست البعثة خلال الشهور الاخيرة من عام ١٨٩٧ م . عدة محطات فى المنطقة باسرها . فى ديابرى وأوم بيا واباك ورمبيك (عاصمة البحيرات الآن) وجور غطاس (وهى التونج) ومشرع الريك . وفى ٤ يونيه ١٨٩٨ غادر مارشان فورت ديسكى (واو) حتى دخل النيل نفسه فى ٤ يوليه وفى ١٠ يوليه ١٨٩٨ وصل فشودة ورفع اعلامه عليها . »

واستطرد البحث بعد وصول الحملة الفرنسية الى النيل فى فشودة يقول :

« وكان (مارشان) عند وصوله الى فشودة يتوقع ان يجد فى انتظاره البعثة الفرنسية الزاحفة من الشرق مع الاحباش ولكنه لم يجدها فبعث بأحد اعوانه (باريتيه) على الباخرة (فيدهيب) على نهر سوباط حتى وصل الى نقطة تبعد نحو ٢٠٠ كيلو من (الناصر) وعلم بوصول الضابط الفرنسى (فافر) والكولونيل الروسى (ارتمانوف) مع جيش الاحباش بقيادة (الدجاج تاما) الى ملتقى سوباط بالنيل فى ٢٢ يونيو ١٨٩٨ م وعاد (براتيبه) الى فشودة فى ١٤ سبتمبر . »

وقبل عودة (باراتيه) بتلك الانباء المزعجة كان (مارشان) قد اشتبك فى قتال مع الدراويش (يعنى الانصار) فى ٢٥ اغسطس ١٨٩٨ م ارتد الدراويش (الانصار) بعدها الى منطقة الرنك وكان الخبر قد وصل للخليفة عبد الله بان جيشا من الغزاة البيض جاء من الجنوب فاحتل فشودة فارسل سرية من الانصار على باخرتين واحد عشر مركبا شراعيا بقيادة سعيد صغير الجعلى لطردهم منها . ووصلت السرية يوم ٢٥ اغسطس الى الشرق من فشودة ووجدوا الفرنسيين متحصنين فى طابيتين وتبادلوا اطلاق النار ولكن الانصار لم يقووا عليهم فارتدوا بطريق الشرق الى الرنك وارسل امير الانصار احد الوابورين لاحضار المدد من ام درمان ولكنه وصل يوم ٩ سبتمبر اى بعد اسبوع من فتح السودان بموقعة كررى يوم ٣ سبتمبر . وعلم (هربرت كتشنر) من الانصار بقصة فاشودة فقرر الزحف فورا الى الجنوب فى صباح ١٠ سبتمبر . »

« وكان السردار كتشنر يعلم من الاشاعات التى بلغته لدى وصوله بربر فى ابريل ١٨٩٨ان الفرنسيين موجودون فى بحر الغزال وان الاحباش وصلوا

(بنى شنقول) على النيل الازرق وكان من المحتمل ان يصل الفرنسيون فى زحفهم الى النيل وان يزحف الاحباش على النيل الازرق منتهزين بذلك مشغولية الخليفة عبد الله فى مقاومة الزحف المصرى الانجليزى من الشمال لاحتلال المناطق التى يريدها الفرنسيون والاحباش فى السودان » .

« فكان حينئذ ان اقترح اللورد كرومر على سولبرى وزير خارجية بريطانيا لدفع ذلك الخطر المزدوج فى مذكرة بتاريخ ١٥ يونيه ١٨٩٨ م ان تسير حملتان احداهما للنيل الابيض بقيادة السردار كتشنر والاخرى الى النيل الازرق وعلى ان يقتصر عمل الحملتين على موقف الدفاع فقط اذا التقتا مع الفرنسيين أو الأحباش وان تمتنع الحملتان عن اى عمل من شأنه الاستفزاز . اما اذا رفع الفرنسيون العلم على النيل الابيض فيجب على قائد الحملة ان يحتج على وجود القوات الفرنسية وان يطالب باسترداد الاراضى المحتلة . واشار (كرومر) فى مذكرته تلك لمسالة السيادة عندما تساءل ـ باسم من تكون هذه المطالبة ؟ باسم الحكومة البريطانية ام باسم الخديوى ام بالاثنين معا ؟ واكد كرومر ضرورة ان تكون لدى قائد الحملة تعليمات محددة وقاطعة فى هذه المسالة لاهميتها . »

« ولان وزير الخارجية الفرنسية الجديد (دلكاس) كان معروفا بقوة الشكيمة ويرجو مواطنيه المعادين للانجليز ان تثار المسالة المصرية بنشاط كبير فى عهده ـ فقد توقع الانجليز ان يحاول الفرنسيون اذا نجح (مارشان) فى الوصول الى النيل قبل وصول كتشنر اليها التمسك بتلك الاراضى التى رفعوا عليها العلم الفرنسى على اساس حق الفتح وبدعوى ان تلك الاراضى حق مباح بعد ان اخلاها المصريون » .

« ولهذا فقد اتخذت انجلترا من مذكرة اللورد كرومر اساسا للتعليمات التى اصدرتها الى كتشنر فى السودان فى ٢ اغسطس ١٨٩٨ وقد طلبت التعليمات من كتشنر ان يمتنع عن قول او فعل شىء يفيد أو يتضمن بحال من الاحوال اعترافا صدر من حكومته بحق امتلاك فرنسا او الحبشة لاى جزء من حوض النيل الابيض او الازرق . »

تشبث بريطانيا بحقها المزعوم

« وفى الرسالة التى حملت هذه التعليمات وبعث بها لورد سولسبرى الى كرومر فى ٣ اغسطس قال لورد سولسبرى ان الحكومة الانجليزية قد وضحت خصوصا لفرنسا فى مذكرتها التى ابلغها السيد ادمون مونون سفيرها فى باريس الى المسيو هانوتو وزير الخارجية الفرنسية فى ١٠ ديسمبر ١٨٩٧ وقد جاء فيها : (انه لا يجب ان يفهم انسان عن الحكومة الانجليزية انها تعترف بان لاى دولة اوربية غير بريطانيا حقا فى امتلاك اى جزء من اجزاء وادى النيل . واراء الحكومة قد وضحها فى البرلمان السير ادوارد جراى من بضع سنوات ابان وزارة (اللورد روزبرى) وقد ابلغت رسميا للحكومة الفرنسية انذاك وحكومة جلالة الملكة (فكتوريا) متمسكة بالاقوال التى أدلت بها فى هذه المناسبة الحكومات السابقة) » .

« اما اراء الحكومة الانجليزية التى اشارت اليها المذكرات فموضوعها ان السير ادوارد جراى وكيل وزارة الخارجية البرلمانى كان قد اجاب على سؤال فى ٢٨ مارس ١٨٩٥ بمناسبة نشاط الفرنسيين الاستعمارى ومحاولتهم الوصول الى النيل وذلك اثناء المناقشة التى قلنا انها اثيرت يوم ١١ مارس بمناسبة بعثة (ليونار) الفرنسى تعليقا على الاشاعات التى راجت وقتئذ عن ان تعليمات قد صدرت لبعثة فرنسية بالدخول فى وادى النيل فقد ذكر جراى ان ليس لدى الحكومة الانجليزية ما يحملها على افتراض ان هذه الاشاعات واجبة التصديق . ثم مضى يقول « بل وانى سوف اذهب الى ابعد لاقول انه بعد كل تلك التوضيحات التى ادليت بها بصدد الحقوق التى تعتبر انها لازالت لمصر فى وادى النيل . ومع اضافة الحقيقة التالية وهى ان حقوقنا واراء الحكومة بشانها معروفة تماما وبوضوح للحكومة الفرنسية اقول اننى لا اعتقد انه ممكن ان تكون هذه الشائعات اهلا لتصديقها لان زحفا تقوم به حملة فرنسية بناء على تعليمات سرية من ذلك الجانب الآخر من افريقيا لا يكون عملا شاذا وغير متوقع فحسب بل هو عمل غير ودى » .

« ولهذا طلبت التعليمات من اللورد كتشنر فى السودان ان يحاول اقناع قائد الحملة الفرنسية (مارشان) عندما يقابله لان وجوده فى وادى النيل انما هو اعتداء على حقوق بريطانيا العظمى والخديوى معا . اما إذا حصل اتصال

واحتكاك مع البلجيكيين فى منطقة حاجز اللادو فالواجب عليه (اى كتشنر)
ابلاغهم بأنه بمقتضى اتفاق ١٢ مايو ١٨٩٤ م ليس لهم حق فى امتلاك الاراضى
امتلاكا كليا ودائما ولكن ليس لبريطانيا بموجب نفس هذا الاتفاق ان تتدخل
فى استئجارهم مؤقتا لبعض الاراضى المعينة فى هذه المنطقة » .

هكذا كان واضحا ان الحكومة البريطانية متشبثة بان لبريطانيا ومصر معا
حقوقا دائمة فى السودان اما بحق الفتح فيما يخص بريطانيا واما بموجب
ما كان لمصر من حقوق السيادة التى كانت تعتبر مصر محتفظة بها رغم قيام
الثورة المهدية ولكنها معطلة فقط بالتمرد السودانى على السلطة ثم لم تلبث
اى مصر ـ ان استردتها بعد زوال المهدية تلقائيا . وتارة اخرى تقول
بريطانيا ان مصر قد فقدت فعلا تلك السيادة باندحارها امام الثورة المهدية
وإخلائها للسودان كله ثم استعادتها بحق الفتح المشترك مع بريطانيا فى حملة
كتشنر . كل ذلك لان بريطانيا تتشبث بحقوق لها فى فتح السودان ولا يهمها
ان حقوق مصر على السودان تمتد عبر فترة المهدية ولكن يهمها ان فرنسا
لا تحتل بحر الغزال ولا اى جزء من وادى النيل .

وكان تشبث الانجليز بحقهم فى السودان واضحا لفرنسا بانه لا نكوص عنه
اطلاقا وقد خشى (دلكاس) وزير خارجية فرنسا بعد ان حققت القيادة
الانجليزية انتصارها على جيش الخليفة عبد الله فى كررى ـ خشى ان زحف
اللورد كتشنر على اعماق النيل الابيض قد يؤدى عند التقائه مع الكولونيل
(مارشان) الى اصطدام لا تحمد عقباه لدى الدولتين انجلترا وفرنسا .

الحلول الدبلوماسية :

« لقد حاول (دلكاسى) فى ٧ سبتمبر ١٨٩٨ وهو يهنىء السفير الانجليزى فى
باريس السير ادموند مونسون على انتصار كتشنر ـ حاول ان يبين له وجهة
النظر الفرنسية بأن (مارشان) رسول مهمة للتمدن وانه مزود بتعليمات
تمنعه من خلق متاعب محلية تنشأ من خلاف على مسألة (الحقوق) ولذلك
فإن اى خلاف ينشأ على موضوع (الحقوق) تجب احالته على الحكومتين هنا
فى باريس ولندن للنظر فى امره . ثم اعرب (ديلكاسى) عن رغبته فى ان تصدر
الحكومة الانجليزية تعليمات مشابهة لقائد حملتها الزاحفة للجنوب منعا

لوقوع اى اصطدام بين الحملتين الانجليزية والفرنسية هناك » . وقد كان
تعليق (مونسون) على موقف الحكومة الفرنسية عندما نقل هذه المقترحات
الى حكومته فى ٨ سبتمبر ١٨٩٨ هو: (ان الامة الفرنسية وحكومتها تدركان
تماما ان اثارة الضجيج حول المسألة المصرية لا يأتى بفائدة . ومع ذلك فان
هذا لا يعنى ان الفرنسيين سوف لا يثيرون زوبعة ضد الاحتلال البريطانى فى
مصر سواء فى البرلمان الفرنسى او فى صحافتهم » .

« ثم استطرد مونسون يقول : ولكن فى حين ان الفرنسيين يحاولون ـ وهذا
طبيعى اقامة الحجة منطقيا على ان الاحتلال يجب ان ينتهى من مصر فهم
يدركون تماما كذلك ان العمليات الاخيرة قد نجم عنها ببساطة ان اشتدت
قبضتنا على مصر وانه من المتعذر ان يتمثل المنطق الفرنسى التطبيق العملى » .

« وفى جوابه على رسالة (مونسون) هذه كتب اللورد سالسبورى فى ٩
سبتمبر يقول (المبدأ الذى تريد الحكومة البريطانية ان تستند عليه الحقوق
التى صارت لبريطانيا ولمصر فى السيادة على المناطق موضوع النزاع الظاهر
بينها وبين الحكومة الفرنسية وهو المبدأ الذى ينسحب تطبيقه بطبيعة الحال
على كل اقاليم السودان التى امتلكتها مصر اصلا . وطلب (سالسبورى) اذا
عاود (ديلكاسى) الكلام فى هذه المسألة ان يبين له السفير الانجليزى انه بعد
الحوادث العسكرية التى حدثت فى الاسبوع المنصرم اصبحت كل الاراضى
التى كانت خاضعة للخليفة عبد الله ملكا للحكومة الانجليزية والمصرية بحق
الفتح . وان الحكومة الانجليزية ترى ان هذا الحق لا يقبل المناقشة ولكنها
مستعدة لان تحل سائر المشاكل المتعلقة بالاراضى التى لا تتأثر بهذا التوكيد
حلا وديا يبحث فيه الفريقان بتمام الحرية كما يروم سعادته » .

وقد لاحظ (ديلكاسى) عندما بلغته ان عبارة (الاراضى التى كانت خاضعة
للخليفة) مبهمة . وفى مقابلة اخرى نقل تفاصيلها (ادموند مونسون) الى
سوليسبورى فى ١٨ سبتمبر ١٨٩٨م تساءل (ديلكاسى) عما إذا كانت
الحكومة الانجليزية لا ترى انه يحق (لمارشان) ان يصل الى النيل وكان من
راى (ديلكاسى) ان اقليم بحر الغزال خارج من نفوذ وسلطان الخليفة عبد الله
وان فشودة لم تكن محتلة بقوات المهدية عندما احتلها (مارشان) . واعتقد
(ديلكاسى) انه ليس من الصعب الوصول الى حل يرضى الجانبين اذا شاءت

الحكومة الانجليزية ان تعالج هذه المسالة بالروح الودية التى تريد فرنسا ان تعالجها بها . ولكن السفير مونسون اكد للوزير الفرنسى ان حكومته تعتبر (فشودة) جزءا من املاك الخليفة عبد الله ولذلك فالحكومة الانجليزية متمسكة بموقفها وترفض اى حل وسط فى هذه المسالة . ثم اختتم مونسون تلك المقابلة بإبداء ملاحظة هى ان الحكومة الانجليزية لا رغبة لها فى اثارة عراك مع فرنسا ولكن بعد كل هذه التحذيرات التى حصلت لا يجب ان تندهش فرنسا اذا غضبت بريطانيا عن اى خطوة فرنسية اخرى تتخذ هناك .»

اللورد كتشنر ومارشان فى فشودة :

وجاء فى بحث الدكتور محمد فؤاد شكرى ما ياتى :

« فى ١٨ سبتمبر ١٨٩٨ كان كتشنر قد اقترب بحملته من فشودة وكان مارشان قد علم فى نفس هذا اليوم من احد الشلك باقتراب حملة كتشنر وكان طبيعيا ان تنتقل المشكلة من لندن وباريس الى فشودة ارض النزاع والتاهب للحرب الذى يتوقف كليا على حسن تصرف قائدى الحملتين الانجليزية والفرنسية واعطائهما الفرصة لحكومتى لندن وباريس لحل المشكلة بطريق التفاهم والتفاوض السلمى .»

« وفى صباح ١٩ سبتمبر ارسل اللورد كتشنر بخطاب الى الكولونيل مارشان حمله اليه جنديان سودانيان ابلغه فيه انه انتصر على جيش الخليفة عبد الله فى واقعة كررى واسترجع السودان وانه ترك بعد هذا النصر ام درمان قاصدا فشودة على خمس طرادات وقوة انجليزية ومصرية عظيمة وانه فى اثناء مسيرته لقى قوة من الدراويش (يعنى الانصار) فى الرنك وبعد معركة قليلة الاهمية استولى على معسكرهم ووابورهم واسر اميرهم الذى قال ان الخليفة عبد الله كان قد ارسله الى فشودة لاحضار بعض الغلال وانه قد حدثت بينه وبين رجال من الافرنج معركة فرأى ان يرجع الى الرنك ليطلب من الخليفة عبد الله مددا ليطرد اولئك الاجانب وبينما هو منتظر الرد هاجمه السردار كتشنر من الشمال .»

« واجاب مارشان بخطاب فى نفس اليوم مهنئا لورد كتشنر على انتصاره على الخليفة عبد الله واسترداد السودان وزوال المهدية من وادى النيل . ثم انتقل بعد التهانى الى ابلاغ كتشنر بقوله له (انه بناء على اوامر حكومته قد

احتل بحر الغزال الى مشرع الرنك والى ملتقى بحر الجبل ثم بلاد الشلك غرب النيل الابيض الى فشودة التى دخلها يوم ١٠ يوليه ١٨٩٨ . ثم قص اخبار اشتباك الدراويش معه يوم ٢٥ اغسطس وانتصاره عليهم وهو الانتصار الذى كان من نتيجته (تحرير بلاد الشلك) ومضت رسالة (مارشان) تقول :

« لقد وقعت مع سلطانها (اى بلاد الشلك) عبد الفاضل الملك العظيم معاهدة ٣ سبتمبر وبموجبها وضعت بلاد الشلك غرب النيل الابيض تحت الحماية الفرنسية بشرط التصديق عليها من الحكومة الفرنسية وقد ارسلت المعاهدة اولا بطريق نهر سوباط فالحبشة ثم عن طريق بحر الغزال بمشرع الرنك حيث توجد الباخرة (فيد هيب) المكلفة بنقل الامدادات اللازمة لدعم فشودة خوفا من عودة هجوم الدراويش (الانصار) وكانوا قد اعتزموا الهجوم بقوة تزيد على القوه التى هاجموا بها فى اغسطس لولا ان حضوركم منعهم من ذلك .»

مواجهة شخصية :

« وفى ٢١ سبتمبر ١٨٩٨ وصل اللورد كتشنر الى ظاهر فشودة وارسل اليه الكولونيل (مارشان) الفرنسى (لان التقليد العسكرى هو ان يستدعى صاحب الرتبة العسكرية الادنى للضابط الأعلى رتبة) . ودارت مناقشة عنيفة فى مواجهة شخصية بين القائدين هدد اثناءها كتشنر باستخدام القوة ثم عاد فتريث لعلمه ان احتكاكا مثل هذا من المحتمل ان يؤدى الى نشوب الحرب بين انجلترا وفرنسا . واخيرا اتفق القائدان على ان لا يفصلا فى شىء حتى يخبر (مارشان) حكومته وفى اليوم الثانى ٢٢ سبتمبر رفع كتشنر العلمين المصرى والانجليزى على فشودة ثم غادرها الى الخرطوم (تاركا قواته هناك) .

« واسرع كتشنر من الخرطوم فأرسل برقيتين تحويان ماحدث فى فشودة عن طريق سفارة بريطانيا فى مصر وكان السفير انذاك يسمى « القنصل العام » .

« ونكر كتشنر فى الرسالة الاولى انه وصل الى (الرنك) وسيفصل ماحدث مع الانصار هناك اما البرقية الثانية فقد اشتملت على تفاصيل المقابلة مع مارشان فى فشودة وقد جاء فيها قوله :

« انه عند وصولى الى فشودة جاءنى (مارشان) ومعه مسيو (جيرمان)
وهو من اعضاء بعثته . وفى باخرتى اخبرتهما ان وجود قوة من الفرنسيين فى
فشودة ووادى النيل يعد تعديا على حقوق مصر والحكومة الانجليزية
واعترضت على إحتلالهم فشودة ورفعهم للعلم الفرنسى على املاك الخديوى
اشد الاعتراض فأجابنى المسيو (مارشان) ان الاوامر التى صدرت اليه
صريحة باحتلال هذه البلاد ورفع الراية الفرنسية على دار الحكومة فى
فشودة . وقال انه يستحيل عليه الخروج من هذا المكان الا بأوامر من حكومته
وهو ينتظر ان لاتبطىء اوامرها وسألته (المتحدث لورد كتشنر) ان كان
سيمنع رفع الراية المصرية على فشوده وهو يعلم ان لدى قوة أعظم من قوته ،
فتردد ثم قال انه لا يستطيع المقاومة فرفعت الراية المصرية على بعد نحو
خمسمائة متر من العلم الفرنسى وعلى الطريق الوحيد الذى يوصل الى
الداخل من الموقع الفرنسى وهو موقع تحط به المستنقعات من كل جانب .
وقبل سفرى ارسلت كتابا الى مارشان اعترضت فيه اعتراضا رسميا
بالنيابة عن حكومتى بريطانيا ومصر على احتلال فرنسا لجزء من وادى النيل
لان ذلك يعد تعديا على حقوق الحكومتين وقلت انى لا اعترف باحتلال فرنسا
لجزء من وادى النيل وتركت حاميته فى فشودة » وكان متوقعا ان تصل حملة
حبشية الى ملتقى سوباط مع النيل عند (خور فلوسى) ولكن كتشنر وصل
اليها قبل سفره للخرطوم ووضع بها حامية رمزية ورفع عليها علم مصر
وبريطانيا . وقال انه لم يجد اثرا للاحباش وعلم بانهم يبعدون بنحو ثلاثمائة
وخمسين كيلومترا الى الشرق من الملتقى . وقال فى تقريره ايضا انه وجد
النيل به حواجز من الطحالب والعشب السميك فامر مدفعيته ان تسير فى بحر
الغزال الى مشرع الرنك وقال انه عند رجوعه مارا بفشودة فى طريقه
للخرطوم ارسل خطابا الى مارشان يقول فيه ان نقل المواد الحربية ممنوع
لان البلاد هنا تحت الاحكام العرفية .

وجاء (الشلك) وكثيرن من رجاله الى معسكر الميجور جاكسون
(جاكسون باشا حاكم د نقلا فيما بعد) وانكروا انهم قد عقدوا معاهدة مع
(مارشان) والفرنسيين باسم القبيلة وقد ابدوا ـ باسم الشلك كل السرور
بالرجوع لطاعة الحكم المصرى الانجليزى .

وفى رسائل اللورد كتشنر لحكومته ولمصر قال ان (مارشان) تنقصه
الذخيرة والمؤونة وما يرسل اليه لا يصله الا بعد شهور وقال ان (مارشان)
وفرقته منقطعون عن داخل البلاد وليس له اتباع من المواطنين . وقال ان
الجيش الانجليزى المصرى لو تاخر عن موقعة كررى لاسبوعين فقط لتمكن
الانصار من ابادة فرقة (مارشان) فى فشوده .
والواقع ان اللورد كتشنر قد وضع فرقة مارشان الفرنسية تحت الأسر
المباشر حين انشأ حاميتين إحداهما على الشمال واخرى على ملتقى سوباط
بالنيل ومنع عنه اى إمدادات او طعام باعتبار المنطقة تحت النفوذ الثنائى
وتحت قانون الاحكام العرفية ولأن المواصلات كانت مائية وليس هناك طرق
برية فان مارشان وجد نفسه فى مصيدة وبهذا الوضع توتر الموقف فى اوربا
بين انجلترا وفرنسا لدرجة كان يخشى معها من نشوب الحرب بينهما ولكن
فرنسا لم تكن فى موقف يقوى على الحرب بما يعود عليها وعلى مستعمراتها
فى افريقيا بعواقب وخيمة فأذعن وزير خارجيتها للأمر الواقع بالرغم من
شعور الفرنسيين الملتهب ضد بريطانيا . وقرر (ديلكاس) الدخول مع
بريطانيا فى مفاوضات لايجاد حل سلمى . ويقول الدكتور شكرى انه المحتمل
ان تكون روسيا حليفة فرنسا قد نصحتها بعدم اثارة الحرب بشأن موضوع
فشودة وارسال تعليمات الى مارشان بمغادرة المكان . وكان مارشان قد
يئس من وصول التعليمات فغادر فشودة عن طريق نهر سوباط الى الحبشة
ثم وصل القاهرة ليجد تعليمات تأمره بالعودة الى فرقته فى فشودة للجلاء
عنها واخلائها للحكم الثنائى .
وفى باريس تسلم السفير البريطانى رسالة من اللورد سولسبرى رئيس
وزارته تقول انه استقبل (البارون دى كورسيل) سفير فرنسا فى لندن الذى
ابلغه ان حكومته قررت ان تأمر بعثه مارشان بالانسحاب من فشودة وان
ترسله ليقوم هو بتنفيذ ذلك الانسحاب فورا .

بريطانيا اتكات على (حقوق مصر)[1] :

والقارىء لن تخفى عليه حقيقة واضحة وهى ان بريطانيا فى محاوراتها

---

(١) مصر والسودان ـ دكتور احمد فؤاد شكرى

ومفاوضاتها مع فرنسا قد اتكات على موضوع (حقوق مصر) فى السودان لتحقق مأربها فى استعمار وادى النيل لتزيل الفجوة بين سيطرتها على اوغندا وسيطرتها على مصر ويكون النيل من منبعه الى مصبه تحت حماية ورعاية واستثمار بريطانيا .

وقد راينا فى هذا الفصل نفسه كيف ان بريطانيا قد اعتمدت ذات مرة على نظرية (الملك الحر) وهى تقول بان الارض كلها كانت ملكا للخليفة عبد الله وبانتصار المهدية سقطت حقوق مصر ثم عادت بدافع من صيانة ومصالح الامبراطورية لترفع شعار حقوق مصر والخديوى فى السودان وتعتبر المهدية كلها عبارة عن تمرد مؤقت على السلطة المصرية الخديوية .

صدى القصة فى مصر :

اما فى مصر فقد كان طبيعيا ان تثير اصحف الفرنسية المحلية والمعادية للاحتلال البريطانى حملة كبيرة ومركزة على الانجليز بسبب حادث فشودة وكانت النغمة التى رددتها تلك الصحف هى ان مصر قد تنازلت عن حقوقها فى السيادة على السودان عقب نجاح الثورة المهدية .

وقالت صحيفة (لوكوربيه دوريان) كما جاء فى كتاب الدكتور شكرى ان مصر عندما اخلت السودان لم تكن تنوى ان تسترده عسكريا مرة اخرى وان انجلترا لهذا ليس لها حق ان تطالب بانسحاب بعثة مارشان العسكرية من فشودة . ومضت الصحيفة تقول ان الفرنسيين محقين فى دعواهم بان مصر قد فقدت حقوقها فى السودان بعد اندحارها امام المهدى . ويقول الفرنسيون ان المطالبة بالانسحاب لو حدث ان جاءت من جانب الخديوى أو سلطان تركيا لكان ممكنا ان يكون ذلك محل بحث واعتبار حيث ان الخديوى وسلطان تركيا لهما الصفة التى تخول التدخل فى هذه المسألة والمطالبة بما يريانه حقا لهما .

وهذا يعنى ان تلك الصحيفة الفرنسية اعترفت ضمنا بان حقوق مصر وتركيا فى عهد ما قبل المهدية لا تزال باقية بالرغم من ان فرنسا نفسها تتحدث فى كل اطوار هذا الحوار بشعار أن السودان بعد خروج المصريين عنه مدحورين على يد المهدية يعتبر (ملكا مباحا) لن يستطيع ان يستولى عليه

وفى ٢٦ اكتوبر ١٨٩٨ م كتبت صحيفة (لوكوربيه دوريان) ايضا تقول ان فرنسا هى الدولة الصديقة التى يجد خديوى مصر منها كل العون وانها الاخت الكبرى لمصر وهاجمت انجلترا التى عبأت حملة دنقلا لفتح السودان بدون موافقة الخديوى عباس حلمى الثانى الذى كان فى اجازة بأروبا عندما زحف اللورد كتشنر نحو السودان من اسوان وبذلك جرده الانجليز من كل سلطاته واهملوا رايه ومشورته وهو الجالس على عرش مصر . وتحمست الصحف الفرنسية فقالت ان احتلال مارشان لفشوده كان فيه تأمين لاستقلال مصر وذريعة لرفع الاحتلال الانجليزى عنها ولا يجب ان ينسحب مارشان من فشودة إلا إذا انسحب الانجليز من مصر نفسها .

وكان من اثر هجوم الفرنسيين على بريطانيا واحتلالها لمصر ما جعل بعض المصريين يعتبرونها ازمة فى صالحهم يجب استغلالها لتخليص مصر من قبضة بريطانيا . ومن اولئك الخديوى عباس نفسه الذى كان يكظم غيظا شديدا على الانجليز لتصرفهم فى امر مصر والسودان بارسال حملة كتشنر عام ١٨٩٦ للسودان بغير الرجوع اليه بالرغم عن ان الحرب تدار باسمه وتحت علمه المرفرف على الحملة .

ومما زاد الخديوى غيظا على الانجليز انهم بعد فتح السودان فى سبتمبر ١٨٩٨ اعلنوا مشاركتهم لمصر فى حكمه ورفع كتشنر العلم الانجليزى مع العلم المصرى فى كل سارية من مرافق الحكومة وكل ذلك بغير اذن الخديوى عباس[1] .

وروى الدكتور شكرى فى كتابه قصة نسبها الى احمد شفيق باشا الذى كان يصحب الخديوى عباس فى اوربا عندما بلغهم زحف كتشنر على السودان بان بعض كبار الفرنسيين قالوا للخديوى ان فرنسا قد اعدت العدة لاحتلال (بحر الغزال) لمساعدة مصر ضد انجلترا وكان هذا القول مريحا لاعصاب الخديوى ولنا جميعا لاننا جميعا نريد جلاء الانجليز عن مصر .

وقد خاب امل الخديوى طبعا عندما تقهقرت فرنسا وانسحب جيشها من فشوده ثم من (واو وكل بحر الغزال) تباعا . ومن الغريب فى السياسة المصرية وضعف قبضة الخديوى عليها ان الانجليز قد طلبوا من رئيس

(١) مصر والسودان – دكتور احمد فؤاد شكرى

الوزراء المصرى (مصطفى فهمى باشا) ان يعلن لهم تفويضا مصريا لينوبوا عن مصر فى المفاوضات الجارية بين الانجليز وفرنسا بشأن مصر وفشودة وذلك تناقض وفوضى سياسية لا مزيد عليها وفيه دلالة على ان حكم مصر فى يد انجلترا وحدها .

وكان السبب فى التفويض ان وزير خارجية فرنسا لم يعترف لانجلترا ان تنوب عن مصر فى موضوع حقوقها فى السودان ولهذا اوحى للوزارة المصرية ان ترسل تفويضها لبريطانيا فارسل بطرس باشا غالى وزير خارجية مصر هذا التفويض للورد كرومر ممثل بريطانيا فى مصر :

(ان حكومة مولاى الخديوى لم تغفل قط امر استرجاع السودان كما تعلمون جنابكم لان السودان مصدر حياة القطر المصرى ولم تنسحب الحكومة المصرية عن تلك البلاد الا مكرهة بحكم الضرورة . فالغاية المقصودة من فتح الخرطوم تضيع فائدتها اذا لم يسترد وادى النيل الذى ضحت لاجله مصر ضحايا عظيمة . ولعلم الحكومة ان بريطانيا العظمى وفرنسا تتفاوضان الآن فى مسألة فشودة فوضت الى ان اكلف جنابكم مساعدتنا لدى (لورد سالسبورى) حتى يعترف لمصر بحقوقها التى تتنازع فيها وترد اليها جميع المديريات التى كانت محتلة لها قبل ثورة المهدى)

من هذا يتضح ان مصر لم تكن لها سياسة مقررة وموحدة لان هوى الخديوى عباس مع فرنسا وضد بريطانيا التى تتجاهله وهوى وزارته فى القاهرة مع الانجليز بل هم كانوا ادوات طيعة فى يد اللورد كرومر ممثل بريطانيا ينفذون له كل ما يريد حتى لو كان ذلك ضد رغبة الخديوى الجالس على العرش المصرى .

وتفويض مصر لبريطانيا لتتحدث باسمها فى المفاوضات لابد ان يكون قد سكب الماء على تحمس فرنسا الملتهب فى مصلحة مصر كما تدعى . اما دفع الانجليز فى المفاوضة بان السودان بكل اجزائه يعتبر ممتلكات مصرية لم تسقط بقيام المهدية باعتبار ان ثورة المهدى غير شرعية بل هو تمرد الى حين ثم تعود الاملاك الى سيادة مصر – هذا القول لا يستقيم مع اى منطق كيف يفسرون الثورة المهدية بانها تمرد وهى التى قامت بتصفيه كاملة لسيطرة مصر على السودان فكانت النتيجة استقلال كامل ناله السودان على يد

المهدية منذ اعلان ثورتها فى ١٨٨١م الى دخول جيش الحكم الثنائى فى ٣ سبتمبر ١٨٩٨م فهل سمعتم بتمرد جزئى كما يدعون لمدى ثمانية عشر عاما حدث فيها تغيير كامل لكل حياة السودان ؟

ولو اقتصر المفاوضون الانجليز على شىء واحد هو حقيقة وقعت وهو السيادة على السودان بحق الفتح الانجليزى المصرى الاخير – لو اقتصروا على ذلك لكان وحده كفيلا بان يمنحهم الحجة ضد فرنسا فى مفاوضاتهم .

اما الثورة الوطنية التى حررت البلاد بانهار من الدماء السودانية والمصرية ونجحت فى نهاية المطاف – فلا يصح اعتبارها تمردا على سلطة الخديوى الشرعية ولا ندرى من اين تلك الشرعية المزعومة التى سقطت باسترداد السودانيين لحرياتهم بحد السيف .

واخيرا :

كان لابد للنزاع الانجليزى الفرنسى حول (حادث فشودة) ان ينتهى دبلوماسيا وقد تم ذلك نهائيا فى ٢١ مارس ١٨٩٩ بالاتفاق على اصدار (تصريح) انجليزى فرنسى يدخل تعديلا مكملا على المادة الرابعة من اتفاق ١٤ يونيه ١٨٩٨م الخاص بتحديد مناطق النفوذ بين املاك ومستعمرات الانجليز والفرنسيين الواقعة الى الغرب والى الشرق من نهر النيجر وقد وقع على ذلك التصريح كل من اللورد سالسبورى عن انجلترا ومسيو بول كامبون السفير الفرنسى فى لندن[١] .

وبمقتضى ذلك التصريح خرج حوض بحر الغزال وبحر العرب كله بما فى ذلك دار فرتيت غرب الغزال ودار فور عن دائرة النفوذ الفرنسى . ومن نظرة شاملة لخريطة افريقيا يتضح ان بريطانيا ومصر قد نالتا كل ما كانتا تطلبان ابان المفاوضات مع فرنسا . واضطرت القوات الفرنسية التى احتلت بحر الغزال لفترة فى كثير من اقاليمه الى الانسحاب الى ممتلكاتها فى الغرب (افريقيا الوسطى وتشاد) .

(١) مصر والسودان – دكتور احمد فؤاد شكرى

الفصل السابع

الحكم الثنائى فى بحر الغزال

الحكم الثنائي في بحر الغزال

بعد مقابلة اللورد كتشنر للكولونيل الفرنسي مارشان في فشوده ونجاح تسوية التفاهم الذي قضى برحيل الفرقة الفرنسية من فشوده للحبشة عن طريق نهر سوباط في سبتمبر ١٨٩٨ ـ لم يفكر حاكم السودان العام في اقتحام جنوب السودان فيما وراء فشوده ونقل التمثيل الحكومي الى بحر الجبل وبحر الغزال لان مهمةاستكمال الغزو واستئصال جيوب المهدية لم تتم ولأن الخليفة عبد الله لا يزال في منطقة (جديد) غرب النيل الابيض يحاول استنفار الناس لنصرة وطنهم الجريح .

وبعد معركة (ام دبيكرات) وانتصار الجنرال ونجت باشا على الخليفة بمقتله وتشتت رجاله في ١٨٩٩ كانت هناك فترة أخرى اقتضاها تنظيم الادارة البريطانية بعد رحيل اللورد كتشنر الى حرب البوير بجنوب افريقيا وتعيين الجنرال ونجت باشا حاكما عاما للسودان بدلا منه .

وفي اواخر عام ١٩٠٠ ارسل الحاكم العام جيشا مكونا من فرقتي الاورطة الرابعة عشر والسابعة عشر على سفينتي نقل نهري بكامل عتادهما وسلاحهما لفتح مديرية بحر الغزال التي تزيد اهمية وضعها الجغرافي وطبيعة اهلها عن المديريات الجنوبية الأخرى التي انتظمت في سلك الحكومة بسهولة وسرعة لان بحر الغزال متاخمة لغرب السودان ولصيقة بالكنغو البلجيكي الذي لا يستعمره الانجليز مثل يوغندا .

وبعد صراع ونضال مع السدود والمستنقعات استطاعت القوة العسكرية أن تصل (مشرع الرنك) الذي يعتبر مفتاحا لبحر الغزال من ناحية النهر . واهمية « مشرع الرنك » كميناء نهري تتمثل في كونه أرضا مرتفعة عن مستوى البحيرة ومنها يمكن السفر برا تجاه الغرب الى واو وبقية مناطق بحر الغزال . ولكن المشرع من حيث السكان والعمران يعتبر خيبة أمل كبرى كما ذكر الكولونيل ماكسويل قائد القوات السودانية في مذكرة له للحاكم العام حين قال :ـ

« هذه البقعة لا تصلح إلا سكنا للبعوض وفرس البحر والنوير[١] . والدينكا ولم اعثر على جنة افريقيا التي تحدث عنها (فلتكن) اللهم إلا أن تكون تحت مياه هذا السد الممتد »

---

(٢) من كتاب « ارض وراء الانهار لروبن كولن

وكان نهر الجور مسدودا تماما بالاحراش والبابايرس (قصب البردى) مما استوجب على الجيش جهدا لا حدود له لتتمكن البواخر الصغيرة والصنادل المستطيلة من الملاحة فيه واختيار محطات مرتفعة لاقامة معسكرات عمال للغابات تمد البواخر بالوقود من اخشاب الأشجار فى داخل امتداد الارض الصلبة .

وباحتلال واو فى اواخر ديسمبر ١٩٠٠ تم الاعتبار الرسمى بأن الحكومة الانجليزية المصرية(١) قد وضعت يدها على بحر الغزال ولكن هل هذا غير صحيح من الناحية العملية ؟

كان الدينكا وهم اكبر واهم قطاع فى بحر الغزال قد عانوا كثيرا من وطأة العناصر الاجنبية ابتداء من النصف الاول من القرن الثامن عشر عندما غزاهم تجار الرقيق الاجانب من اوروبيين واتراك ومصريين ثم تجار الرقيق السودانيين ثم الحكم المصرى التركى ثم حكم المهدية التى مثلها على امارة بحر الغزال كرم الله كركساوى . ولما وصلتهم طلائع جيوش الحكم الثنائى فى اول هذا القرن قابلوها بجفاء وسلبية تامة امتنعوا بها عن تقديم اى عون للجيش الفاتح وحتى عن اى ترحيب مظهرى ولكنهم لم يقاوموا الفتح لانهم لم يجمعوا امرهم على ذلك .

ومع ذلك فإن اسباركس بك قائد القوات قد توغل فى دار الدينكا فرفع علمى الحكم الثنائى على سارية اعدت فى معسكر انشىء فى التونج واحتفل هو وضباطه بعيد ميلاد عام ١٩٠١ بعد أن رفعت الاعلام على سارية معسكر واو العاصمة واعلام اخرى رفعت على منتصف مسيرة جور غطاس .

وبالرغم عن جفاء الدينكا ومظاهر عدائهم للغزو ورجاله فإن القائد اسباركس قد وجد فى واو عندما دخلها فى مطلع يناير ١٩٠١ قبائل صغيرة كثيرة وتجمعات من مهاجرين هربوا من دار الزاندى ودار الدينكا إنقاذا لارواحهم فوجدوا فى دخول الحكومة السودانية الجديدة لواو حماية لهم وامنا مما عانوه من جزع ورعب فرحبوا بالجيش واستقبلوه بالتصفيق والهدايا ومن القبائل التى رحبت بالجيش القولو واندقو وينقو وكريش ويلانده وغيرهم من القبليات الصغيرة .

وفى صيف نفس عام ١٩٠١ امتدت الفتوحات من التونج الى رمبيك وبرول

---

(١) لم يشترك المصريون فى حكم الجنوب ولم يكن لهم فيه نفوذ

وشامبى من الشرق كما ارتفعت الاعلام فى غرب واو على رابية (ديم زبير) وراجا . ومع كل هذه المراكز التى افتتحت والحياة التى استقرت فيها فان الدينكا ظلوا فى عزلة واضحة عن الحكومة ومرافقها ولم يصل منهم اليها إلا نفر قليل قد تعزى زيارتهم إلى الفضول وحب الاستطلاع اكثر منها ترحيبا وولاء او رضاء بالأمر الواقع .(١)

اما النوير فى المناطق المتاخمة لرمبيك فانهم لم يكتفوا بعدم الاعتراف بالحكومة ولكنهم كانوا يهاجمون جنود الدوريات العسكرية من وراء الاعشاب الغزيرة لظنهم بان الجنود يريدون الاستيلاء على ابقارهم فى المراعى وهو الأمر الذى كان يحدث من دوريات الحكم التركى السابق وسرايا المهدية . وبالرغم من أن قواد جيش الحكم الثنائى ارادوا ان يشرحوا سياسة الحكم الجديد للنوير والدينكا وينظموا معهم الادارات الاهلية والقيادات القبلية إلا ان النوير والدينكا لم يسمحوا بفرصة اللقاء إلى أمد طويل مما جعل الحكومة تعيش على اهبة دائمة لمواجهة هجوم يخطط فى اى لحظة .

ثورة الدينكا اقار :

فرع الاقار من قبيلة الدينكا يسكنون منطقة رمبيك وفى حدود متسعة منها وقد عرفوا بالشراسة وعدم الاعتراف بالنفوذ الأجنبى وفى تاريخهم ثورات ضد الحكم التركى وعدم اعتراف بسطوتهم حتى ارغموا على ذلك بالحديد والنار . وفى عام ١٨٩٧ هاجموا القوة الفرنسية بقيادة (تونكويديك) كما هاجموا الحكم المصرى التركى بثورة عارمة عند ظهور المهدية وضعف القوات المصرية وانهيار مقاومتها .

وعندما فتح اسباركس بك حامية رمبيك فى أواخر ١٩٠١ صار الاقار يهاجمون كل تجمع عسكرى اومدنى تابع للحكومة خارج المدينة مما جعلها فى حالة حرب دائمة ومما اوحى للحكومة أن الاقار سينظمون ضد الحكومة ضربة مركزة فى يوم قريب .

وفى يناير ١٩٠٢ تجمع الدينكا اقار بقيادة ميانق ماتيانق ، وهو زعيم ذو قوة روحية وقبلية طاغية وهاجموا قافلة جمال حكومية تحمل عتادا

---

(١) ارض وراء الأنهار - روبن كولن

ومهمات كثيرة للحكومة من ميناء شامبى إلى رومبيك وقتل الثوار الكابتن اسكوت باربر وكل من معه من جنود ما عدا أربعة من الحرس هربوا بجروحهم .(١)

وظل ميانق يحارب الحكومة فى كل مجال يختاره واستطاع ان يجمع كل الدينكا حتى خارج منطقة الاقار على عداء محكم مع الحكومة وعلى ضوء الاحوال التى تواجهها الحكومة وضع للقائد اسبباركس بك ان مقتل الكابتن اسكوت ينبغى ان يكون نقطة تحول كبرى لموقف الحكومة المسالم حتى الآن وإذا حدث تساهل فى القصاص من الاقار فإن الدينكا اتوت وشيش وعالياب والنور سيتحالفون على عداء الحكومة ويتبعهم بطبيعة الحال الدينكا ريك وملوال وغيرهم .

وبهذا التحليل خرج الكولونيل هنتربك من واو بقوة كبيرة ولجأ إلى حيلة سياسية اخرى وهى أن يحرض الاخرين من الدينكا غير الاقار بأن يصحبوه كمتطوعين لحرب الاقار ويكون نصيبهم الأبقار التى تقع غنيمة فى يد الحكومة ولأن البقر إغراء لا يقاوم عند الدينكا والنوير فقد تبعه عدد كبير من المتطوعين برغم انهم يكرهون الحكومة الجديدة ورجالها .

وزحف هنتر بك نحو الاقار وبطش بهم بسلاحه الذى لا يملكون مثله وحرق الزرع وشنق المشايخ والزعماء والمتصدرين على فروع الأشجار علنا . وبينما كان هنتر بك يجوس خلال الاقليم بحثا عن تجمعات الأبقار وصل الى شامبى الميجر استاك (الحاكم العام فيما بعد) على رأس قوة كبيرة من الاورطة العاشرة السودانية ارسلت من الخرطوم بعد معرفة مقتل الكابتن اسكوت .

وبدأ استاك عملية الحرق والشنق من شامبى فى طريقه غربا إلى رمبيك وواو . ولكن الزعيم ميانق الذى تسبب فى مقتل المئات ومصادرة الأبقار وحرق القرى لا يزال حيا تبحث عنه الحكومة وراء كل مرتفع ومنخفض حتى ينتقموا منه ولكنه فى غفلة عسكرية من الحكومة هجم على رومبيك واوقع بها خسائر كبيرة واختفى غير أن ضابطا سودانيا قد تمكن من مهاجمته عن طريق الصدفة واستطاع ان يهزم الدينكا ويقتل منهم عددا ثم فروا إلى داخل الأحراش ولكن الزعيم متيانق الذى كان جريحا قد مات أثناء الانسحاب وتطوع من أبلغ القيادة بذلك النبأ الذى اضطر بعده الاقار إلى التسليم للحكومة على مضض واكراه .

---

(١) ارض وراء الانهار – روبرت كولن

الزاندى والانجليز والبلجيك

قوة الزاندى :

ومع ان الحكومة قد وضعت يدها على معظم بحر الغزال بنهاية عام ١٩٠٢ إلا ان الجزء الأهم والأقوى فى جنوب بحر الغزال وهو (دار الزاندى) لا يزال غير خاضع للحكومة . واهمية هذا الجزء تنبع من وجوده فى منطقة الحديد مع الكنغو البلجيكى وفى داخل (اقليم اللادو) الذى أتضح ان الملك ليبولد الثانى ملك بلجيكا يسعى جهده ليضمه إلى الكنغو كتوسع استعمارى له ضرورته الاقتصادية لولا أن الزاندى بقيادة السلطان يمبيو قد وقفوا سدا منيعا دون استعمار البلجيك كما وقفوا ايضا دون استعمار الانجليز باسم حكومة السودان .

مطامع ملك البلجيك(١) :

كان الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا قد توسع فى استعمار اراضى الكنغو الحرة متوغلا فى الأراضى السودانية ابان المهدية وفوضى تحديد معالم الحدود فوضع يده على منطقة اللادو ومنطقة أخرى فى بحر الغزال داخل حدود دار الزاندى . وكان هم الانجليز بعد فتح كتشنر وإعلان الحكم الثنائى الانجليزى المصرى هو ان يقوموا بحماية النيل وروافده حيثما كانت على اعتبار أن النيل يمثل عصب الاقتصاد المصرى بالرى فهى بذلك حريصة على حمايته مهما كلفها الأمر لأن بريطانيا بعد احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ قد صارت جميعها من بين مصالح الانجليز التى يتوجب عليهم حمايتها من اى مساس خارجى .

كان الملك ليوبولد قد طالب فعلا بأن يترك له جنوب بحر الغزال وأن يقتطع له منفذ على النيل فى منطقة منقلا ولكن النزاع لم يقف عند معارك المفاوضات والمداولات بل امتد إلى المواجهات وحشد الجيوش من الطرفين الانجليزى والبلجيكى بالرغم عن الاتفاقية التى أعطى بها الانجليز الملك ليوبولد حق التملك لمنطقة اللادو وكانت لمدى محدود ينتهى بحياته هو (ليوبولد الثانى)(٢) .

---

(١) ارض وراء الانهار – روبرت كولن

(٢) السودان فى مدونات ومذكرات

ولما كان بحثنا هذا يخص بحر الغزال بالذات فإن الحديث سينحصر فيها كمديرية لم يكتمل فتحها للسودان لسنوات طويلة بعد استقرار الحكم الثنائى منذ سبتمبر ١٨٩٨ م وكان السبب لذلك يعزى إلى امرين اولهما : مطامع البلجيك فى منطقة الزاندى ونشاطهم الدبلوماسى والعسكرى لضمها للكنغو وثانيهما : وقوف السلطان يامبيو سلطان الزاندى عقبة كاداء فى سبيل البلجيك وفى طريق الانجليز ايضا لانه كان يكره الاستعمار والنفوذ الاجنبى وكان قوى الشكيمة وواسع التبعية مع رجاحة راى لم تتوفر لزعيم جنوبى اخر .

ومع أن الانجليز قد امتنعوا بصلابة واصرار عن مطلب الملك ليوبولد فى مناطق النيل باللادو لما ذكرنا من اسباب إلا انهم لم يمتنعوا عن تعويضه عن ذلك بأرض فى بحر الغزال لا تتصل بالنيل ولا بروافده وبذلك صرح « اللورد لانزدون » وزير خارجية بريطانيا بانه لا باس بان يضاف للكنغو جزء من بحر الغزال لا تكون روافده ذات اهمية لزيادة رى النيل ولا تكون ذات صلاحية ملاحية تصله بالنيل .

ولم تعجب تلك الاشتراطات الملك ليوبولد الذى كانت اهتماماته منصبة على النيل وليس على التوسع الارضى فراى ان يعزز وسيلة المفاوضات السياسية فى اوربا بتحركات عسكرية فى بحر الغزال وهو نفس الراى الذى نفذه الانجليز فى بحر الغزال عن طريق قواتهم التى تحركت عام ١٩٠١ إلى منطقة الملك طمبرة الذى رحب بجيش اسباركس بك وهيأ لهم كل وسائل العون القبلى ومنحهم ولاء الزاندى والقبائل الاخرى التى يهيمن عليها .

وبوصول قوات حكومة السودان إلى طمبرة استطاعوا ان يضعوا ارجلهم على ارض صلبة فى دار الزاندى كما استطاع طمبرة نفسه أن يطمئن على كيانه ومركزه من سطوة السلطان يامبيو الذى كان يخشاه . وظل القائد الانجليزى اسباركس فى مقر قيادته لدى السلطان طمبره يحاول إستمالة السلطان يامبيو بكل وسائل الملاطفة والوعود يتبعها كثير من الهدايا المادية القيمة من اسلحة وخيام وملابس وغير ذلك ولكن السلطان يامبيو لم تصدر منه اى إستجابة لذلك الغزل السياسى الاستعمارى رغم انه يدرك قوة الحكومة الانجليزية الجديدة فى السودان وبخاصة بعد أن حصلت على صداقة ومحالفة السلطان طمبرة وبعض السلاطين الصغار اتباع يامبيو نفسه

مما يضعف قوته ولكن قناة يامبيو لا تلين وكرهه للنفوذ الاجنبى لم يتغير او يتبدل .

وقد بلغ طمع البلجيك فى مناطق بحر الغزال المؤدية إلى مشارف النيل ان ارسلوا قوة بقيادة (لامير Lamaire) خرجت من منطقة نهر ياى وتوغلت إلى خط رمبيك - يرول - شامبى للاستطلاع ومعرفة مدى قوة حكومة السودان وسيطرتها على هذه المنطقة مع معرفة الاسلوب الذى يجذبون به الدينكا وجيرانهم النوير فى الشمال .

ولكن حكومة السودان لم تتردد فى ان تخرج إليهم بقوة يقودها الكابتن (بول) مفتش رمبيك وحدثت مواجهات على البعد ساعد فيها الحظ حكومة السودان لأن الدينكا والنوير واجهوا البلجيك بعداء وتحفز لصدام شامل لمجرد ان البلجيك كانوا يصطحبون فى الحملة كثيرا من الزاندى والكنغوليين الذين يكرههم الدينكا بطريقة تقليدية عريقة . ومن المؤكد ان القوتين العسكريتين للسودان والكنغو لم يكن بوسع اى منهما ان يبدأ قتالا او يطلق الشرارة الأولى لأن امر النزاع فى بحر الغزال لا يزال يبحث فى المستويات العليا فى اوربا . بين الملك ليوبولد وحكومة لندن كما ان تعليمات اللورد كرومر فى مصر والجنرال ونجت فى الخرطوم كانت واضحة وحاسمة لادارة حكومة السودان بأن لا يزيد نشاطهم عن التظاهر العسكرى وإظهار القوة والاصرار على عدم التخلى عن بحر الغزال وان لا تصطدم القوات عمليا بدوريات البلجيك ولا تبدأ هجوما على السلطان يامبيو الذى ادرك الانجليز انه ليس معهم ولكن ايضا ليس مع الملك ليوبولد الثانى وقرروا ان موقف اللا حرب واللا سلم مع يامبيو هو الوضع الاصح والاسلم للوقت الحاضر .

السلطان ريكتا وفشل التعاون مع الانجليز :

ومع التعليمات بأن لا تنشب حرب بين بريطانيا والبلجيك فى افريقيا فقد نشط الجانب الدبلوماسى فى اوربا لحل المشكلة وامتد إلى مصر فالخرطوم ثم وصل بحر الغزال فبدأ مدير المديرية العمل على اجتذاب ولاء ومناصرة السلطان (ريكتا) ابن السلطان يامبيو الذى كان يحكم الاقليم الشمالى للزاندى تجاه منطقة التونج وبنجاح هذه الخطة تكون الحكومة قد وضعت يدها على منطقتين هامتين من دار الزاندى إحداهما تحت السلطان طمبرة والاخرى تحت السلطان ريكتا ابن السلطان يامبيو .

وبدأت الحكومة اتصالاتها بالسلطان «ريكتا» عن طريق بعض رجالات الزاندى الذين انتدبهم لها السلطان طمبرة صديق الحكومة وبعض العاملين مع الحكومة منذ دخولها من أبناء الزاندى . وقد زود حاكم بحر الغزال أولئك السفراء بكثير من الهدايا الشخصية كالملابس وأدوات الزينة والسلاح الخفيف ومعدات الصيد وغير ذلك كعربون لصداقة ومحالفة ترضى الحكومة معها بكفالة سلطات السلطان وحقوقه المكتسبة والموروثة .

وكان « ريكتا » بحكم الوضع الجغرافى لمنطقته قريبا من يد الحكومة كثير الميل للتعاون معها وبخاصة بعد تعاون السلطان طمبرة ولكنه كان يخشى سطوة أبيه « يامبيو » الذى يرفض كل نفوذ أجنبى . ومع ذلك فقد وعد مدير بحر الغزال بالتعاون وإعلان الولاء فى الوقت المناسب .

واعتبرت حكومة السودان تلك الخطوة نجاحا باهرا جاء عن طريق التفاهم والاقناع ووصلت أنباؤه للخرطوم والقاهرة ولندن كمرحلة أولى لاقناع السلطان يامبيو أو الاستيلاء على مملكته إن لم يكن من ذلك بد للحكومة .

المعركة الخاسرة

وعند تقرير الفرصة المناسبة للزحف على إقليم السلطان « ريكتا » فى مستهل عام ١٩٠٤ انتدب الميجور وود بك لقيادة ثلاثمائة جندى نظامى من الأورطة الخامسة عشر تجمعت فى التونج واتجهت جنوبا نحو الزاندى - وأرسل للميجور وود للسلطان ريكتا بعض الاعلام لترفع دليلا على التعاون والتحالف ولكن (ريكتا) أرسل للميجور وود بأن يتريث فى دخول الزاندى ليعطيه مزيدا من الفرص للتفاهم مع أبيه السلطان يامبيو أو يجد طريقا آخر للتعاون مع الحكومة .

ولكن الميجور وود - وقد كان على جانب كبير من التهور والحمق كما وصفته تقارير رؤسائه - قد ركب رأسه واقتحم منطقة السلطان « ريكتا » ظنا منه بأنه سيضع السلطان أمام الأمر الواقع بذلك التصرف ولم يدرك أنه قد أفسد كل النجاح الدبلوماسى الذى نسجت خيوطه من لندن والقاهرة والخرطوم ووضع جاهزا للتنفيذ على يد ضابط متهور .

ولم يتوقع الميجور وود أن السلطان ريكتا يمكنه أن يرفع السلاح فى وجه الحكومة السودانية بعد الاتفاق على التعاون ولكن « ريكتا » قد ارتد عن فكرة التعاون لسببين :

أولهما : أن تصرف الميجور البريطانى باقتحام داره وقريته بالسلاح قد اعتبره إهانة وتحقيرا لشأنه كسلطان .

ثانيهما : أن احترام ريكتا لوالده سلطان يامبيو كان عظيما بحيث لا يمكنه أن يصطحب قوة أجنبية مهما كانت التزاماته نحوها لتحارب أبيه وتقهره وتخضعه بحد السيف للولاء لحكومة السودان .[١]

ولهذين السببين استقبل ريكتا سرية الميجور وود بالعداء والمواجهة العسكرية بما لدى ريكتا من سلاح نارى وباستعمال السهام الذى يجيده الزاندى . ولكن الميجور وود الذى اندهش لمقاومة ريكتا وهو أمر لم يكن يتوقعه قد استعمل قوة سلاحه المتفوق على سلاح الزاندى وهم المكسيم

(١) أرض وراء الأنهار - روبرت كولن

والمدافع الجبلية ولم يكن للزاندى بد من الهـزيمة امـامه ولكن ريكتا وبعض رجاله قد هرب وانضـم إلى ابيه يامبيو تائبا مسـتغفرا مـن سـابق وعوده لحكومة السودان .

والتفت الميجور وود بعد فرار الزاندى ليجد ان كل الحمـالين الذين كانت الامتعة والغذاءات بأيديهم قد رموها على الارض وفروا مع اهلهـم الزاندى كما فر خبراء الطريق وغيرهم .

ومن ناحية اخرى فإن الميجور وود لم تكن لديه الصلاحيات مـن رئاسته ليزحف نحو السلطان يامبيو إلا بمعـرفة سـلطان ريكتا وفيمـا حـدث منه وانعكس على السلطان ريكتا وانضمامه لأبيه ما يكفى لان ينسحب الميجور وود مرتداً إلى منطقة التونج بعد معـركة خـاسرة خسر فيهـا جنوداً وعتاداً وسياسة احكم تدبيرها افسدها التهور والشطط . ووصل الميجور إلى مركزه ليواجه مسئولية ضخمة عما حدث منه فى ٢٥ / ٢ / ١٩٠٤

محاولات اخرى للبلجيك :

ومع طلائع خريف ١٩٠٤ اقتحم القائد البلجيكى « لامير » مـع قـوة كبيرة جدا شواطىء بحر النعام وكل منطقة امتولو وهى مناطق تقع فى داخل حـدود بحر الغزال بل متوغلة فيه .

واستنجدت إدارة بحر الغزال بالخرطوم وارسل السير ونجت الحاكم العام كل جنود الأورطة التاسعة السودانية وبلغ تجمع القوات السودانية لمواجهـة قوات الكنغو نحوا من التسعمائة جندى ولكن تجمعات الكنغو مـن اللادو إلى بحر الغزال قد زادت عن عشرين الف جندياً بأسلحة متكافئة ان لم تكن اقوى من سلاح حكومة السودان .

وأبرق السير ونجت باشـا إلى اللورد كرومـر فى القـاهرة ان البلجيك لن يقهرهم إلا إرسال فرقتين من الجيش الانجليزى لبحر الغزال وذهـل اللورد كرومر لهذا الطلب لصعوبات ضخمة تعترضه منها أن الحكومة البريطانية لم تعترف حتى ذلك الحين بضرورة النفقـة البريطـانية على احتلال السـودان وما عسى أن تكون الفائدة منه . ومنهـا ان مناخ بحـر الغـزال مـن الناحية الصحية سيدمر حياة كثير من الانجليز وتلك مغامرة لا يتحمل مسـئولياتها . ولهذه الأسباب فقد احجـم اللورد كرومـر عن الاتصـال بلندن لطلب الجنود

ولكنه ـ بطريقته الدبلوماسية ـ اوحى للورد سالسبرى رئيس الوزراء ليسعى جهده لنجاح اى اتفاق مـع ملك البلجيك الذى كان يفـاوضهم لتنتهـى المحنة بالطرق السلمية دون اللجوء للمواجهة العسكرية التى تخشى حكومة السودان مغبة نتائجها .

وتنفسوا الصعداء :

وفجاة ـ ومن غير معلومات رسمية لدى القوات السودانية ـ رأوا أن جنود البلجيك من الاوروبيين والكنغوليين تنسحب من منطقة بحر النعام وامقـولو وغيرها وتتجمع داخل منطقة اللادو . ولم تعلم القيادة بأسباب ما حـدث حتى وصلت تعليمات الخرطوم بأن ترسل كل قوات الفرقة التاسعة وبلوكات الفرقة الخامسة عشر للخرطوم عن طريق البواخـر التى تنتظـرهم فى ميناء مشرع الرنك خلال شهر يونيه ١٩٠٤ وقبل ان تقفل الطرق باشتداد الخريف فيسجن كل هذا الجيش فى بحر الغزال .

وتنفس مدير بحر الغـزال الصـعداء وارسـل كل الجنود الذين وصـلوا كامدادات طارئه إلى الخرطوم وبقى يعمل تحت ظل القوات المرصودة اساسا لبحر الغزال فى واو والتونج وطمبرة ورمبيك وشامبى .

ومع ان جنوب بحر الغزال الذى يقع تحـت نفـوذ السـلطان يامبيو لم يزل مستقلا ومعتصما بقوته الذاتية عن حـكومة السـودان وحـكومة البلجيك ـ إلا ان الأحوال فى بقية بحر الغـزال قـد اسـتقرت فى يد الحـكومة نوعا ما ومنحتها الفـرصة لتنظيم الادارة المركزية والادارة الأهلية وبناء المرافـق المدنية والعسكرية .

ولكن الوضع الشاذ لحكومة السودان مع ما عساه يحدث فى دار الزاندى مع السلطان يامبيو لا يزال يقض مضاجع الحـكام ويقلق راحتهـم لان الوضـع السياسى بين بريطانيا والملك ليوبولد الثانى يعترض امر الاحتكام إلى القـوة العسكرية من جانب حكومة السودان .

الانتصار على السلطان يامبيو :

لم يكد الجنرال لامير قائد القوات البلجيكية يبرح منطقة بحر الغـزال بكل جنوده عن طريق النجاح الانجليزى الدبلوماسى فى اوربا ـ حتى اتجه تفـكير السير ونجت باشا الحاكم العام إلى إرسال قوة عسكرية ضاربة تقتحـم دار

الزاندى وتهزم السلطان يامبيو عسكريا وتضم الاقليم إلى المديرية لان موقف اللاسلم واللاحرب مع يامبيو قد بدأ يشعر الحكومة بمساس فى قوتها وهيبتها وكبريائها .

واعتمدت الحكومة بقدر كبير من الثقة على السلطان طمبره الذى كان فى محنة وازمة يبدى شعورا وخدمات ودية دلت على حقيقة ولائه لحكومة السودان او (للانجليز) كما كان يقول هو . ولو ان الحكومة ـ منذ ان عسكر اسباركس بك فى طمبره عام ١٩٠٢ ـ قد اشتبهت فى ولاء السلطان طمبره لكان لها معه شان آخر .

وفى ابريل عام ١٩٠٤ كتب السلطان طمبره إلى مدير بحر الغزال بعد ان عرف نية الحرب مع يامبيو ـ كتب يقول للمدير :

« إذا كان هناك عزم للذهاب للسلطان يامبيو فليكن ذلك بتخطيط للحرب ولا شى غير الحرب فإن وافقتم على ذلك فإنى معكم فى هذا الامر مطيعا لاننى اعرف اساليب السلطان يامبيو[١] » .

وفى يونيه ١٩٠٤ ارسل باولنويز بك مدير بحر الغزال الكابتن « بثل » إلى طمبره بمطالب كبيرة مما يتعلق بالتحضير لحملة ضخمة وامضى كابتن بثل مدة تزيد عن الشهرين لاعداد الحمالين والمواد الغذائية والطرق والسلاح المحلى من حراب ونشاب وغير ذلك وعاد فى اغسطس بتقرير حوى وعودا مغرية للاسراع بالحملة على جنوب الزاندى .[٢]

واكتمل كل تجهيز للحملة بين سلطات الخرطوم وبحر الغزال وبعد نهاية خريف ١٩٠٤ مباشرة ابحرت البواخر النيلية من ميناء المقرن بالخرطوم ومن ميناء التوفيقية (العاصمة قبل ملكال) تحمل نحو الف جندى من فرق الأورطة التاسعة والعاشرة والخامسة عشر متجهة نحو مشرع الرك ميناء بحر الغزال وكانت تلك الحملة فى مكتمل قوتها وصلاحيتها ولياقتها العسكرية والقتاليق مزودة بأحسن الاسلحة وكميات ضخمة من الذخيرة والاغذية والمعدات العسكرية المختلفة .

وكان يقود تلك القوة نحو اربعين من الضباط الانجليز والمصريين ووصلت القوة إلى مدخل بحر الغزال فى ديسمبر ١٩٠٤ وتولى القيادة مدير بحر

---

(١) من كتاب ارض وراء الانهار للمؤرخ روبن كولن

(٢) ارض وراء الانهار ـ روبن كولن

الغزال بنفسه بولونيز بك ثم انقسمت القوة الى فرقتين احداهما بقيادة القائمقام سذرلاند بك ومسيرتها من رمبيك إلى انقولى ومنها لدار الزاندى من الشمال والفرقة الثانية وهى اكبر حجما وعتادا فانها ستدخل دار الزاندى من الشمال الغربى بقيادة المدير مع قوات السلطان طمبره المساعدة .

وكانت الخرطوم قد اعطت مدير بحر الغزال كل الصلاحيات للتصرف العسكرى الذى يراه فى تلك المعركة التى اعتبروها فاصلة او يجب ان تكون فاصلة[١] وذلك هو السبب فى حشد كل تلك القوات ومعداتها ولكن الصلاحيات قد شملت ايضا إمكانية التفاوض مع السلطان يامبيو على اساس واحد هو قبول الولاء التام للحكومة ورفع علم الحكم الثنائى الذى سيطلق يد السلطان فى حكم قبيلته .

ومع ان الحكومة تعلم ان حيوانات النقل لا تعيش فى منطقة الزاندى بسبب ذباب (تسى تسى) إلا انها استوردت من الخرطوم مئات الحمير لتساعد على الاقل فى مرحلة الزحف الاولى من المشرع إلى طمبره والمنطقة الشرقية وقد حدث ذلك فان الحمير بعد توغلها فى دار الزاندى تساقطت كلها بسبب الذباب ولجأت القوات إلى استعمال الحمالين الذين عينهم السلطان طمبره وصغار السلاطين الموالين للحكومة فى تلك المنطقة .

وقبل ان يبدأ الهجوم على السلطان يامبيو ترامى إلى اسماع القوات السودانية نبأ عجيب ومثير وهو ان الجنرال لامير البلجيكى قد نشر قواته تجاه بحر الغزال وانه ينوى من الناحية الجنوبية غزو السلطان يامبيو ايضا . وهنا راى اسباركس بك ان يسرع هو بالغزو للسلطان يامبيو ليضع البلجيك امام الامر الواقع باعتبار ان المنطقة تدخل جغرافيا فى حدود السودان المتفق عليها فى معاهدة برلين بين بريطانيا والملك ليوبولد الثانى عن بلجيكا عام ١٨٩٤[٢]

واسرع قائد حكومة السودان بارسال الميجور « فيل » وكابتن « كارتر » مع قوة من الجنود ليقتحموا المنطقة لازالة العوائق الأولية مثل وجود سلاطين فرعيين بين منطقة طمبره ويامبيو كالسلطان اندورما ولكن القوة التى وصلت وجدت ان السلطان اندورما قد توفى منذ عدة شهور وخلفه ابنه السلطان « انقوتا » الذى واجه قوات الحكومة بولاء واستسلام غير مصطنع لانه يميل للسلطان طمبره ضد يامبيو ويطمع فى توطيد مركزه وتوسيع إدارته بعد إزالة

---

(١) السودان فى مدونات ومذكرات

(٢) ارض وراء الانهار ـ روبرت كولن

السلطان يامبيو الذى يمثل بالنسبة له ذعرا كثيرا وعدم إستقرار يسعى جهده لازالته . وقد صرح السلطان انقوتا انه مثل طمبره يرى أن يخضع للحكومة على بعدها فى واو من ان يخضع للسلطان يامبيو . وباستعراض اسباركس بك لأربعمائة من الضباط والجنود فى منطقة السلطان انقوتا اطمأن الزاندى هناك من الخوف الذى كان ينتابهم من السلطان يامبيو . وفتح الجيش طريقا إلى منطقة « زنقمبيا » التى تبعد اربعين ميلا فقط عن مقر السلطان يامبيو وفى اخر يناير اكتمل الجيش لدى السلطان « زنقمبيا » بكامل معداته للمرحلة الأخيرة .

وبينما كانت القوات السودانية تقترب من يامبيو كان هو يحارب بضراوة وشراسة فى الناحية الجنوبية ضد قوات البلجيك الذين استعانوا بالسلطان رنزى الذى كان متعاونا معهم ولكن يامبيو الذى كان يقاوم فى الجبهتين بسلاح يتكون معظمه من النشاب والحراب مع قليل من الأسلحة النارية كان لابد أن ينهزم امام الكنغوليين وسلاحهم المدفعي والرشاش .

ولأن المثل يقول (مصائب قوم عند قوم فوائد) فقد استفادت القوات السودانية من إنهاك يامبيو من حرب البلجيك بأن سئم الشيخ الذى رفض الاستسلام والاستعمار فمنع جيوشه من مقاومة القوات السودانية حقنا لدماء الزاندى التى اهدرت بكميات كبيرة فى كل تلك الحروب ولكنه حرصا منه بأن لا يقبل استعمار منطقته بأولئك أو هؤلاء قد تعاطى نوعا من السم الذى يستعمله الزاندى لينهى حياته قبل ان يتورط فى عملية استسلام لحكم أجنبى كان يسعى جهده أن لا يترك سبيلا لسيطرته على بلاده .

وعندما اسرعت القوات السودانية لاقتحام منطقة يامبيو لم تجد مقاومة من اى نوع وظل القائد يبحث عن السلطان يامبيو حتى يوم ٩ فبراير ١٩٠٥ م[١] فوجده ميتا فى قطيه بعيدا عن منزله متأثرا من سريان السم التقليدى الذى تعاطاه خلاصا من حياة ستنقلب إلى وضع لا يريده . واحتفل الانجليز بدفنه كبطل عظيم الشأن واطلقوا اسم يامبيو على بلده التى كانت تسمى فى حياته (بلكيوى) .

والغزو الذى كان سباقا بين دول الغرب المستعمرة بريطانيا وبلجيكا لابد ان ينتهى بينهما على وفاق لا يؤدى إلى حرب بينهما لان طريق التسويات متسع لأصحاب المصالح والأطماع . ولكن هل حدث ذلك الوفاق ؟

(١) كتاب ارض وراء الانهار للمؤرخ روبن كولن

توتر ومواجهة خطيرة

إن الذى حدث فعلا كان تفاقما جديدا للنزاع والصراع بين حكومة السودان او بالاحرى الحكومة البريطانية فى لندن وبين ليوبولد الثانى ملك البلجيك . وقد وضحت إرهاصات النزاع الذى ادى إلى مواجهات عسكرية خطيرة بعد انتصار قوات بحر الغزال السودانية على مملكة السلطان يامبيو .

اتضح عقب الانتصار على يامبيو وإعلان وفاته ان ابنه « مانجى » لم يسلم واستمر فى مقاومة القوات السودانية بطريقة تشبه حرب العصابات او (الغوريلا) وتصدت له قوة عسكرية بقيادة الكابتن (غردون) لارغامه على التسليم والتقت هذه القوة بقوة حكومية سودانية اخرى فى ٢٥ فبراير ١٩٠٥ يقودها الكولونيل (مذرلا ند) الذى وصل دار الزاندى من ناحية الشمال الى منطقة (ريكتا) وقد وصل إلى علمه بأن البلجيك قد شيدوا تحصينات قوية ومتعددة خارج إقليم اللادو وداخل منطقة بحر الغزال بين نهرى مريدى والنعام وقد تأكد للانجليز من هذا الوضع اسباب استمرار (مانجى يامبيو) فى المقاومة لأنه اراد أن يستفيد بقاء وتعزيزا بمواجهة البلجيك للانجليز .

ومن المفاوضات المحلية اتضح للحكومة ان البلجيك قد صمموا فى هذه المرة على اقتحام بحر الغزال واستلام ميناء شامبى على النيل الرئيسى ووصلت الأزمة إلى الخرطوم فالقاهرة فلندن وتحصن ونجت باشا لحرب البلجيك وإجلائهم نهائيا عن حدود السودان ولكن اللورد كرومر فى القاهرة وهو السلطة التى يجب أن تمد الخرطوم بالقوة العسكرية المطلوبة من الجيش المصرى فإنه لم يتحمس لأسلوب القوة بقدر ما راى ان الأمر يعود مرة أخرى للحلول الدبلوماسية مع الملك ليوبولد . وحدثت الاتصالات على أعلى مستوى فى أوربا . وراى الانجليز ان التحدى البلجيكى لحقوق السودان وقواته العسكرية يجب ان يقابل هنا بصرامة ومواجهة سياسية صلبة ترفض كل تدخل من سلطات الكنغو ضد سلطات حكومة السودان فى حماية وصيانة بحر الغزال .

وبعد مزيد من الشد والجذب والتهديدات من الجانبين لم يجد الملك ليوبولد بدأ من الاذعان للأمر الواقع ويسحب قواته مرة أخرى من بحر الغزال

ويتركها للادارة السودانية لانه لم يجد مبررا من ضروراته المحلية فى الكنغو لخلق عداء يمتد إلى توتر بريطانيا ضد بلجيكا فى اوربا وقد تؤدى الحرب فى الحدود السودانية فى نهاية المطاف إلى حرب فى اوربا لم يكن ملك البلجيك فيها ندا لبريطانيا وقوتها.

ومع خلاص منطقة بحر الغزال من النشاط العسكرى وبداية عودتها إلى تنظيم الحكم الادارى مات مديرها (بولونس) بالدسنتاريا فى واو وقد كان رجلا فى راى ونجت وكرومر على جانب كبير من سعة الأفق والدبلوماسية مع المقدرة العسكرية وإليه يرجع الفضل فى تحالف السلطان طمبره مع الحكومة والفضل فى نجاح تخفيف التوتر بين الحكومة والكنغو مع القائد لامير. واستلم المديرية اكبر الضباط رتبة وخبرة وهو الميجور (فيل) ولكنه توفى بعد شهر واحد بالحمى السوداء.

وعندما علم لورد كرومر بذلك استشاط غضبا وقال ان بحر الغزال لا تستحق الحرص عليها بضياع ضباط اكفاء مثل اولئك.

اتفاقية مصير اللادو :

وأخيرا وبعد كل المحاولات والمغامرات من جانب ملك البلجيك ان يحتل بحر الغزال وينشىء مواصلات سكة حديد اللادو والجهود العسكرية والسياسية التى بذلها ليجد منفذا إلى النيل – بعد كل ذلك انتهت مشكلة الحدود السودانية الكنغولية باتفاقية سياسية جديدة نقضت اتفاقية برلين عام ١٨٩٤ بين الدولتين وبلجيكا ولكنها – أى الاتفاقية الجديدة – قد قررت إعطاء الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا حق امتلاك اقليم اللادو بحدوده الممتدة تجاه بحر الغزال وبحر الجبل على ان ينتهى ذلك الامتلاك تلقائيا فى اليوم الذى تنتهى فيه حياة الملك ليوبولد الثانى.

أبرمت تلك الاتفاقية فى آخر ابريل ١٩٠٦ على يدى السير الدون غورست المندوب السامى لبريطانيا فى مصر ممثلا للجانب الانجليزى والبارون فان اتقيلدى ممثلا لجانب بلجيكا وقد وافقت السلطات العليا فى لندن وبروكسل على الاتفاقية بالرغم من أن الملك ليوبولد قد سخط عليها وعلى البارون الذى وقعها واقصاه عن عمله.

وفى ١٧ ديسمبر ١٩٠٩ مات الملك ليوبولد الثانى وانتقل إقليم اللادو إلى السودان عملا بالاتفاقية.

خاتمة :

من هذا البحث التاريخى عن بحر الغزال والصعوبة التى استقر بها الحكم الثنائى فى ربوعه يتضح ان مديرية بحر الغزال والجزء الجنوبى بصفة خاصة لم تذعن للحكم الجديد إلا بعد مضى سبع سنوات من إذعان السودان كله للفتح الانجليزى المصرى. وإن معارك الحكومة مع الدينكا والنوير اولا ثم مع الزاندى واصرار يامبيو على الاستقلال قد كلفت الحكومة من النفقات المالية بما يقرب من كل نفقات الحملة الانجليزية المصرية من دنقلا حتى موقعة كردى وقد كلفتهم كذلك فى الارواح ما يقرب من ذلك اذا اضفنا لضحايا المعارك اولئك الذين قضوا نحبهم بالامراض فى الاحراش والمستنقعات. ولم يحدث فى اى اقليم اخر بالسودان ان ووجه الحكم الجديد بتلك المقاومات الدموية الملحة التى لم يخذلها سوى عدم التكافؤ فى السلاح والقيادة العسكرية.

وقد رايت اخيرا ان لا تنتهى هذه الخاتمة عن قصة بحر الغزال قبل ان نحاول تعريف السلطان يامبيو والسلطان طمبره للقراء لأهمية دور كل منهما فى ملوك منطقة الزاندى مع الجيش الفاتح ولاء او عداء.

الفصل الثامن

السلطان يامبيو

السلطان يامبيو

اسمه « جبدوى » ولكنه عرف باسم يامبيو فلم يعد لاسم الطفولة وجود وقد عرف يامبيو بانه كان اقوى واقوم وأشجع سلاطين الجنوب السوداني كله على الاطلاق . وقد ولد في الثلاثينات من القرن التاسع عشر وأعجب به والده السلطان « بازنجى » منذ طفولته فاحتفظ به مراقبا في محكمته ليتدرب على طريقة الحكم في مشاكل الناس ويتعلم وسائلهم في الدعوى والدفاع وغير ذلك .

وفي شبابه الباكر وضحت مقدرته وسعة افقه في الادارة والقيادة للمدى الذى احتفظ به والده معه في رئاسة المملكة ليخلفه ولم يعينه وكيلا له في إقليم آخر مثل ما فعل بأبنائه الآخرين .

وكانت قوة الزاندى بالنسبة للقبائل الصغيرة متفوقة وطاغية ولذلك كان التوسع في سلطاتهم شرقا وشمالا يتمدد من حين لآخر . ولكن سرايا المغامرين مع التجار المصريين والعرب السودانيين بدأت تدخل دار الزاندى بحثا عن سن الفيل وريش النعام ويستبدلونهما ببعض الحلى والملابس واحيانا بعض السلاح وبدأت علاقات المغامرين من الزاندى تأخذ طريقها إلى الود والصداقة إلى أن حدث أن أساء أحد التجار ذات مرة إلى والد يامبيو فأسرها يامبيو وصنع كمينا للتاجر وقافلته فقتلهم واستولى على سلاحهم ومتاعهم .

ثم احتل البلچيكيون الكنغو وأغرتهم سعة الأراضى الافريقية الى التوسع في ارض الزاندى الذين تعلموا على ايدى البلجيك أساليب الدفاع لحماية بلادهم . ومات « بازنجى » والد يامبيو في عام ١٨٦٦ تقريبا وخلفه يامبيو سلطانا على الدار الرئيسية وحدها لانه لم يشأ ان يخضع اخوانه السلاطين لحكمه كوريث للعرش لانه يعرف ان قيمته الذاتية لدى القبيلة كلها هي التى ستضعه على رأس السلاطين ولكن اخاه الاكبر واسمه (انقيما) قد تعجل طريق الشر لانه يعرف مستقبل يامبيو الكاسح بالنسبة له فاصطدم بيامبيو الذى هزمه وقتله . وكان (انقيما) شريرا وسفاحا ابتهج الزاندى كثيرا لقتله .

ومع ان الزاندى فى مناطق مختلفة من سلطناتهم قد تعاملوا مع العرب المغامرين للتجاره والرقيق ومدوهم بمطالبهم لقاء تبادل تجارى فى السلع الا ان يامبيو لم يثق فى العرب ابدا وقد ظلوا خشية من نقمته وقوته لا يمكثون فى اى مكان من دار الزاندى الا ريثما يفرغون من قضاء اغراضهم .

ولكن عام ١٨٧٢ قد انفتح بنبأ جديد وهوان الزبير رحمة منصور المغامر العربى من شمال السودان الذى اشتهر بقوة سلاحه ورجاله قد اقتحم دار الزاندى من الشمال وكان يحمل كثيرا من الهدايا التى استمال بها كثيرا من صغار سلاطين الزاندى واستطاع اخيرا ان يبرم حلفا مع السلطان فى شمال الزاندى ويشيد طوابى وحاميات حربية محصنة ويتزوج ابنة السلطان (تكما) ويكون له مملكة من داخل نفوذ سلاطين الزاندى للاستغلال التجارى الذى تحميه القوة والسلطة والسلاح .

ولكن الزبير الذى استبدت به فكرة فتح دارفور من ناحية غرب بحر الغزال لان قوافله عبر دار الرزيقات بمنطقة (شكا) كانت تلاقى هجوما ونهبا متكررا ـ قد قرر ان يقوم الى دار الرزيقات ليضع للنهب والسلب حدا نهائيا . ومن ثم فقد ترك بحر الغزال ودار الزاندى لابنه سليمان الزبير واتخذ له جيشا من ابناء وسط بحر الغزال وفرض نفسه مديرا لبحر الغزال يمثل الحكم المصرى ولم يسع الخديوى الا ان يقر ذلك ويمنحه لقب بك مع سلطات المديرية الرسمية .

وفتح الزبير كل دارفور بعد معركة منواشى وقتل السلطان ابراهيم قرض بعد حرب مع الرزيقات انتصر فيها ايضا ودخل الفاشر عام ١٨٧٤ ثم استدعاه الخديوى إسماعيل ليكرمه بعد ان خلع عليه لقب باشا ولكنه ـ خوفا من طموحه ـ حدد اقامته فى مصر بحلوان حتى انتهى الفتح المصرى وانتهت المهدية ايضا .

اما ابنه سليمان الزبير فى دار الزاندى فقد كان بعد ذلك هدفا للحكومة المصرية التى عينت جيسى باشا مديرا لبحر الغزال واوكل اليه امر اجلاء حاميات تجار الرقيق مع صلاحيات قتلهم ان لم يستسلموا . وبما ان سليمان الذى لجأ لحاميتهم فى (ديم زبير) بغرب بحر الغزال قد رفض التسليم

لجيسى باشا فقد ركزت الحكومة على قتاله حتى استطاعت ان تأخذه على غرة وتقتله وتشتت رجاله عام ١٨٧٨ بعد مجزرة فظيعة من محاكمات الاعدام لرجاله ليس هذا مجال تفصيلها .

فى تلك المعارك الحكومية ضد (الجلابة) على العموم وضد سليمان الزبير بخاصة كان سلاطين الزاندى فى صف الحكومة وبخاصة طمبره وزيميو واندورما وغيرهم وقد كافأهم جيسى باشا بكثير من السلاح واموال الجلابة ولكن السلطان يامبيو الذى كان اشدهم كرها للتجار والعرب كان اقلهم حماسا لمناصرة الحكومة بل انه لم يشترك معها بعون او تشجيع مما جعل النظر اليه من جانب الحكم المصرى عدائيا اكثر منه وديا .

وفى ذات مرة من عام ١٨٨١ طمع تاجر مغامر لديه قوة عسكرية فى هزيمة طمبره واستعان بالسلطان اندورما وهو ايضا صاحب مصلحة فى ابادة يامبيو فقادوا حملة لقتاله ولكنه دحرهم بقوة وبسرعة . وعاد السلطان اندورما مهزوما ليحيك الاكاذيب للحكومة ضد يامبيو حتى اضطرها لتسيير حملة عسكرية لقتاله يقودها رفاى الزبير وهو احد موالى الزبير وقواده وقد انفصل عن سليمان الزبير وانضم الى جيسى باشا مدير بحر الغزال واشتهر بحسن القيادة وذكاء التدبير .

واقتحم رفاى منطقة يامبيو بسلاح متفوق ومعه السلطان اندورما بمتطوعيه من الزاندى واستطاعوا ان يهزموه فى تلك المرة وسجنوه واساءوا معاملته فى سجنه بديم زبير مقر الحكومة الذى ظل فيه حتى عهد المهدية حينما هزم الأمير كرم الله كركساوى الحكومة وتسلم زمام حكمها باسم المهدى واطلق سراح يامبيو الذى عاد مسرعا لدار الزاندى لينزع الحكم من ابنه (مانجى) ويتربع على عرش مملكته بعيدا عن مطامع المهدية التى لم يعرف امراؤها الاستقرار لوضع سياسة محددة مع الزاندى وغيرهم .

ولكن القائد العربى دفع الله غزا الزاندى مرة اخرى اثناء هربه من منطقة النيل واصطدم مع جيش يامبيو ولكن الزاندى انهزموا ثم تفرقوا فى الأحراش والغابات وجمعهم ، يامبيو مرة اخرى وواجه بهم جيش الخليفة فاستماتوا فى هذه المرة بما جعل الانصار يرحلون عن دار يامبيو فى جنح الليل .

وهكذا كان السلطان يامبيو عدوا لمن يطمع فى داره وارضه سواء كانوا اتراكا او انصارا او بلجيكا او إنجليزا وكان له مع كل أولئك مواقف رجولية وبطولية قل ان نجد لها مثيلا فى مرحلة من مراحل تاريخ السودان .

السلطان طمبره :

كان السلطان « ليوا » والد السلطان طمبره قد أسس سلطنته فى منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٠) تقريبا فى اقصى شمال دار الزاندى من حيث وضعها الجغرافى ولهذا فقد كان اكثر سلاطين الزاندى تعرضا لنشاط تجار الرقيق الأجانب والعرب ومناوشتهم له ولرعاياه .

وفى حوالى عام ١٨٧٤ قتل السلطان (ليوا) على يد أحد (البازقر) من قواد المغامر المغربى أو التركى على الارجح (كوتشوك على) ووقع طمبره مع اخيه جدى اسرى فى يد الغزاه الذين خربوا الدار وشردوا اهلها .

وفى واو حيث جند طمبره مع جيش الحكومة المصرية وضحت للمشرفين عليه علائم تفوقه الفكرى والعملى ومقدرته المتميزة فى اداء ما يوكل اليه من اعمال بدأت تتجاوز نطاق الواجبات العادية التى تنجز آليا .

واكتشف المدير الجديد روملو جيسى باشا فى طمبره تلك المواهب مع كثير من الصدق والولاء فقربه إليه واستفاد منه فى استنفار الزاندى لحرب سليمان الزبير باشا مع الحكومة . وانتصر جيسى باشا على سليمان وقتله وبقى عليه ان يكافىء طمبره على عونه وإخلاصه بأن يساعده على استرداد حقه المسلوب والعوده الى سلطنته .

وعاد طمبره إلى داره التى اخرج منها بهدايا جيشى باشا من السلاح والذخيرة والمهمات والعتاد والمدربين أيضا . واستطاع طمبره بتجربة الملدوغ من جحر مرة واحدة ان يحمى نفسه وقومه حتى لا يلدغ من نفس الجحر مرتين . ولذلك نجا من غزوات امراء المهدية بعد ان انهزمت الحكومة المصرية على يد كرم الله كركساوى .

ولم يكن طمبره يخشى المغامرين العرب وامراء المهدية وحدهم ولكنه كان على تأهب كامل ويقظة دائمة خشية من نزوات اخيه (جدى) الذى عرف بالأطماع والمكائد ومن طموح السلطان اندورما الذى يطمع فى حق طمبره ايضا .

ولكن طمبره نفسه كان ايضا طموحا وطامعا فى غيره إذ لم تكد سلطة المهدية تنتهى ويحل محلها الحكم الثنائى الذى لم يصل بعد إلى بحر الغزال ـ حتى هجم طمبره على القبائل الواقعة شمال منطقته وضمها جميعا الى سلطنته ليجعل منهم حاجزا طبيعيا ضد هجمات الدينكا على الزاندى وذلك نوع من التخطيط وبعد النظر . والقبائل التى انضوت تحت لوائه هى خليط من البلنده والبنقو والاندوقو وغيرهم وقد استغلهم استغلالا فظيعا فى منافعه ومكاسبه مثل الزراعة والصيد والحصول على سن الفيل وريش النعام لرواج سوقها التجارى فى واو والكنغو ومنقلا .

وفى عام ١٨٩٧ وصل القائد الفرنسى مارشان الى طمبره فى طريقه الى النيل « وهو صاحب احتلال منطقة فشوده وقصة اللورد كتشنر معه فى عام ١٨٩٨ » وقد عقد مارشان مع السلطان طمبره وشيد حامية (هوشنفر) بالقرب من قرية السلطان وهى (طابية) حصينة فى وضع استراتيجى جيد بين نهر الكنغو ونهر النيل .

وكان ترحيب طمبره بالحملة الفرنسية نابعا من تجاربه مع المصريين والانجليز اذ وجد منهم الرعاية والحماية واسترداد حقه السليب فظل يتطلع للاوربيين طوال فترة الهلع التى عاشها ابان حكم المهدية . ولم يخب ظن طمبره فى الفرنسيين لأن الكولونيل مارشان عوضه عن العون من الذره والفول السودانى والشيالين بهدايا قيمة من السلاح النارى الذى يحتاج اليه مع كثير من ادوات الموسيقى والطبل والزمر وجماعة من الفرنسيين بقوا معه ليدربوا جنده وحاشيته على استعمال السلاح والموسيقى .

ولقد كان مجىء مارشان والجيش الفرنسى لدار الزاندى قبل دخول الانجليز بعام واحد يعتبر من حسن حظ الحكومة لأن حسن معاملة مارشان لطمبره جعلته يثق ثقة لا حد لها فى الأوربيين وبخاصة لان رمالوجيين باشا الايطالى هو الذى أطلق سراحه وارسله لاهله معززا بالسلاح والذخيرة ثم جاء الفرنسيون فحدث منهم ما ذكرنا ثم جاء الانجليز فتعاقد معهم ضد البلجيك وضد السلطان يامبيو وضد كل من لم يدخل فى طاعة الحكومة وهو يصدر من كل ذلك عن تجربة عملية آمن بها وكانت لحسن حظه ـ ناجحة ومحققه لآماله .

الفصل التاسع

بريطانيا وبلچيكا وحاجز اللادو

ومن ناحية اخرى فإن طمبره كان بعيد النظر وكثير العلم والخبرة بموقعه من رعاياه الذين تنتمى اكثريتهم لغير قبائل الزاندى وهو لذلك يحتاج دائما الى حليف قوى يضاعف به هيبته لدى رعاياه المغلوبين على امرهم قهرا ومما يدل على ذلك التعليق الذى كتبه اسباركس بك قائد الحملة الانجليزية لحكومته حين علق بقوله « ان طمبره واسع الذكاء ولم يحدث لى ان التقيت برجل فى بحر الغزال فى مثل قوة ذكائه ولا حتى الشيخ لمبو » ثم قال اسباركس « ان الزاندى قبيله متفوقة عقليا على كل قبائل بحر الغزال وبخاصة فى مستويات المسئولية من السلاطين والمشايخ وذوى النفوذ الادارى ايا كان حجمه » وكما حدث ان ذكرنا . فان طمبره قد وضع نفسه وجيشه تحت تصرف قوات حكومة السودان بغير قيد او شرط وبذلك يبدو كمن احتكر ولاء الحكومة واستطاع ان يقول للحكومة هذا مخلص وذلك غير مخلص فيستجاب لقوله وبذلك خشيت سطوته السلطات القبلية كلها سواء كانت من الزاندى او غير الزاندى وفوق هذا وذاك فان القبائل المستضعفة قد صارت تفضل الانضواء تحت لواء سلطته عن اللجوء الى اى سلطة قبلية اخرى لضمان حمايتها ووصايته عليها .

ومن ناحية اخرى فان طمبره لم يلق بالا الى الاستقلال الذى كان السلاطين الاخرون يذرون عنه بالابتعاد عن الحكومة ذلك لان طمبره لم يجد من الناحية العملية تدخلا من الانجليز على استقلال حكمه ولكن علاقتهم كانت معه هو شخصيا ولذلك اعتبر الحكومة ركيزة لحمايته وجزءا من جيشه الذى يناضل به الآخرين من الطامعين وقد نجح فى ذلك كل النجاح .

إن حكومة السودان التى احتلت شمال الزاندى منذ عام ١٩٠١ عن طريق الحلف مع طمبره إنما ارادت وضع يدها على منطقة الزاندى لتتدرج بذلك للزحف على بقية جنوب الزاندى وقد تحقق لها ذلك وهو كل ما ارادت اذ لم يكن من اهدافها مشاركة السلطان طمبره فى ادارة القبيلة . وقد علم هو ـ اى طمبره ـ ببديهة الرجل الذكى كل ما كانت تريده الحكومة فاستفاد من سندها وإمداداتها من غير أن يفقد قيد انمله من سلطته على الزاندى بل بزيادة سلطته على القبائل الملحقة بسلطنته .

بريطانيا وبلچيكا وحاجز اللادو

ذكرنا فى الفصل السابق بإيجاز تعرض بحر الغزال لنشاط واسع من الغزو البلچيكى والفرنسى بعد أن انسحبت جيوش المهدية من الاقليم وتركته لمصيره مع تحركات الاستعمار الأوربى فى كل أنحاء افـريقيا . ولكن قصـة حـاجز اللادو هذه لها اهمية كبيرة جدا فى تاريخ مديرية بحر الغزال القديمة وبخاصة لأن القضية قد نوقشت فى عدة مفاوضات على مستويات عليا فى لندن وباريس وبلچيكا وبرلين وشملت الاتفاقيات دول بريطانيا وبلچيكا وفرنسا والبرتغال ومصر وكادت ان تنشب بسببها حرب ضروس بين فـرنسا وبلچيكا لا تقـف عند حدود بحر الغزال بل تنقل الحرب إلى أوربا نفسها لولا تدخل بريطـانيا ذات النفوذ الواسع آنذاك مدافعة عن حقوق الأمـلاك الخـديوية فى المناطـق الاستوائية بما جعل فرنسا تنسحب من بحـر الغـزال وامتداد النيل الأبيض حتى فشودة وما جعل بلچيكا تتعاقد برد منطقة (حـاجز اللادو) بعـد وفـاة ليوبولد الثانى ملك بلچيكا لتدخل فى حدود السودان التى كانت فى الأصل جزءا منه قبل تمدد الطمع والطموح البلچيكى فى مستعمرة الكنغو الحرة .

ولأن قصة (حاجز اللادو) كما درسناها مـن عدة مصـادر عربية واجنبية كثيرة التعقيد وتختلف فيها الروايات بين مصدر وآخر ـ فقـد رأيت أن اثبت هنا ما جاء عنها فى كتاب (مصر والسودان) للدكتور فؤاد شـكرى عن تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسـع عشر لأنه المؤرخ الوحيد الذى عرض القضية مفصلة بالأرقام والتوقيت بطـريقة تجعل فهمهـا سـهلا وراسخا .

قال الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتابه (مصر والسـودان) : ـ « لم يفقـد الملك ليوبولد الثانى ملك بلچيكا الأمل فى التوسع صوب حوض النيل فقد امتد النفوذ البلچيكى فى حوض نهر الكنغو ـ ووافق مؤتمر (برلين ١٨٨٤ م) الذى نظر فى تقسيم مناطق النفـوذ بين الدول فى أفـريقيا وتنظيم الملاحـة فى نهـر الكنغو والنيجر على انشاء (ولاية الكونغو الحرة) تحت سـيادة ملك بلچيكا (ليوبولد الثانى) ووافق البرلمان البلچيكى على انشاء هذه (الولاية) تحـت سيادة الملك البلچيكى فى ابريل عام ١٨٨٥ م . ولقد شـاهدنا كيف أن ليوبولد أراد استخدام (غردون باشا) فى توسيع أملاك الكونغـو ثم انتهـاز فـرصة

ارسال (استانلى) فى حملة لانقاذ امين باشا ليضم اليه مديرية خط الاستواء . ولكن ليوبولد استطاع بعد ذلك ان يرسم حدود هذه (الولاية الحرة) الجديدة . وبعد أن نجح فى عقد طائفة من المعاهدات مع البرتغال والفرنسيين والانجليز على الوجه التالى :

« مع البرتغال : معاهدة بين البرتغال وولاية الكنغو الحرة فى ١٤ فبراير ١٨٨٥ م ثم أخرى فى ٢٥ مايو ١٨٩١ ثم ثالثة فى ٢٥ مارس ١٨٩٤ م . فاعترفت البرتغال فى شمال نهر الكنغو بتبعية حاجز (كابيندا) لولاية الكنغو كما اتصلت الولاية بالشاطىء الأيسر للنهر عند (متيدا) بينما بقى كل شاطىء النهر للولاية . ومع فرنسا : - اتفاقية ٢٣ ابريل ١٨٨٤ م واتفاق أخر فى ٥ فبراير ١٨٨٥ م ثم معاهدة ٢٩ ابريل ١٨٨٧ م لتخطيط الحدود بين ولايتى الكنغو الحرة ومستعمرة الكونغو الفرنسى على طول مجرى (نهر الاوبانجى) فرع نهر الكنغو الغربى ثم فى ١٤ اغسطس ١٨٩٤ م . وكان البلچيكيون لتحقيق اطماعهم فى مديريتى خط الاستواء وبحر الغزال قد تجاوزوا الحدود التى رسمها اتفاق مؤتمر برلين فى نوفمبر ١٨٨٥ م ثم معاهدتهم مع فرنسا فى ٢٩ ابريل ١٨٨٧ م . فقد ارسلوا حملة بقيادة (كيرك هوقن) فى سبتمبر ١٨٩٠ م استطاعت التوغل حتى وصلت إلى النيل واحتلت (الدنلاى) فى اوائل ١٨٩٣ م كما تقدمت فى نفس الوقت حملات أخرى نحو الشمال فاحتلت عدة مراكز بين عامى ١٨٩١ م و ١٨٩٢ حتى وصلت بالقرب من (ديم زبير) فى غرب بحر الغزال عام ١٨٩٣ م ومعه حدود دار فور وحفرة النحاس فى عام ١٨٩٤ م وعلى ذلك تجاوز البلچيكيون خط عرض اربع درجات الذى تعين فى الاتفاقيات السابقة . ومدوا مراكزهم على الشاطىء الأيمن لنهر (اوله) الذى هو امتداد لنهر الأوبانجى حتى خط عرض خمس درجات . وفى معاهدة ١٤ اغسطس ١٨٩٤ م بين فرنسا وولاية الكنغو الحرة ثبتت اقدام البلچيكيين فى تلك الجهات وصار لولاية الكنغو الحرة الحق فى التوسع شمالا وشرقا مسافة اخرى وتعهدت ولاية الكنغو بعدم احتلال اية ارض فى شمال اللادو . »

ومع انجلترا :

« كانت أولى الاتفاقيات معاهدة بين الكنغو الحرة وشركة (أفريقيا الشرقية البريطانية) وقعت فى عام ١٨٩٠ م وعرفت باسم معاهدة (ماكينون) نسبة

لاسم السيروليم ماكنون رئيسها اعترفت الشركة بموجبها بحقوق ولاية الكنغو الحرة فى السيادة إلى الغرب من خط يمتد من الطرف الجنوبى الغربى لبحيرة البرت ويسير شمالا إلى طول النيل الأبيض إلى اللادو بينما اعترفت حكومة الكونغو الحرة بحقوق السيادة للشركة على شريط من الأرض عرضه خمسة اميال يمتد من الشاطىء الجنوبى لبحيرة البرت ادوارد إلى الطرف الشمالى لبحيرة تنجانيقا »

ومن المعروف ان بعض الشركات الكبرى البريطانية لما وراء البحار كانت تمثل الأمبراطورية ومصالحها فى المستعمرات كما حدث من استعمار الهند الذى بدا بتعاقد شركات ومؤسسات تجارية قبل أن تضع الحكومة يدها على البلاد .

ونعود لما كتبه الدكتور محمد فؤاد شكرى عن حاجز اللادو حيث قال :

« وفى ١٢ مايو ١٨٩٤ م عقدت حكومة الكونغو الحرة اى عقد الملك ليوبولد الثانى نفسه بوصفه صاحب السيادة الشخصية على الكونغو - اتفاقا مع بريطانيا منحت بمقتضاه لولاية الكونغو الحرة باسم الملك ليوبولد منطقة كبيرة من بحر الغزال تقع بين خطى ٣٠ و ٢٥ درجة شرقا وخطى عرض ١٠ و ٤ درجات شمالا وذلك ليسرى طوال حياة الملك ليوبولد الثانى . كذلك المنطقة من بحر الجبل التى تقع على الشاطىء الأيسر للنيل من (ماهاجى) على الشاطىء الغربى الشمالى لبحيرة البرت إلى فاشودة (كدوك الآن) على أن تسترد بريطانيا هذه المناطق بعد وفاة الملك ليوبولد بست شهور . وفى مقابل هذه الهبة الانجليزية من السودان منحت الكونغو للانجليز شريطا من الأرض من بحيرة ادوارد إلى بحيرة - تنجانيقا . اى مسافة درجتين ونصف تقريبا بعرض ٢٥ كيلو مترا . وهكذا تنازلت انجلترا عن معظم اقليم بحر الغزال الهام وكان هناك ضباط من قوات بلچيكية يحتلون الأوبانجى العليا اثناء المعاهدة مع بريطانيا ».

« وقد احتجت فرنسا على تلك المعاهدة الانجليزية - البلچيكية لانها تناقضت مع الاتفاقات الدولية التى عقدت فى مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ اى قبل ذلك بعشرة اعوام وذلك بشأن تخطيط الحدود وتقرير حياد الكونغو فى قرار برلين ١٨٨٥ م ولأن بلچيكا نفسها قد تقرر حيادها فى معاهدة لندن عام

١٨٣١ م بصورة دائمة ولأن حقوق مصر الخديوية فى تلك المناطق فى بحر الغزال وبحر الجبل ثابتة بموجب (الفرمانات) السلطانية العثمانية ومعترف بها دوليا . وقد ضغط (هانوتو) وزير خارجية فرنسا على الملك ليوبولد ليتنازل عن الهبة او الايجار ونظم (دلكاسى) بوصفه وزير المستعمرات الفرنسية حملة بقيادة الكولونيل (مونتى) لطرد البلجيكيين اذا اقتضى الحال ذلك فاضطر ليوبولد للتسليم وانسحب الضباط البلجيكيون من الاوبانجى العليا التى فصلت من الكونغو الفرنسية وجعلت ادارة منفصلة وقائمة بذاتها . وبقيت حملة الكولونيل (مونتى) مستعدة بينما حملة أخرى بقيادة (ليوتار) لم تعرف التعليمات الصادرة اليها آنذاك ولكنها اعلنت بعد اربع سنوات عندما وجه البرنس (هنرى دولريان) خطابا مفتوحا لمسيو (دلكاس) نشرته جريدة السلطات الفرنسية فى ١٨٩٨/١١/٢١ جاء فيه ان الكولونيل (مونتى) الذى عين فى عام ١٨٩٤ م على راس حملة مكلفة بالزحف من الكونغو إلى النيل الأبيض سأل الحكومة أن تعهد بمهمة إلى البرنس « هنرى دولويان » هى ان يذهب البرنس عن طريق الحبشة ببعثة للالتقاء بالكولونيل (مونتى) وكان الهدف هو ان تحتل القوات الفرنسية الزاحفة (فشوده) من الشرق والغرب . »

هذا الضغط من جانب فرنسا جعل من الممكن ان تعقد فرنسا مع ولاية الكونغو الحرة اتفاقا فى ١٤ اغسطس ١٨٩٤ نالت به فرنسا تعديلا للحدود لمصلحتها بين املاكها فى افريقيا الاستوائية وولاية الكونغو البلجيكية الحرة وتعهدت الكونغو بأن تخلى فى أقرب وقت الأماكن أو المراكز التى كانت تعوق تقدم الزحف الفرنسى وهى فى حفرة النحاس ورفادى وزيميو وتنازلت عن احتلال اقليم بحر الغزال وتعهدت فرنسا فى نظير ذلك بعدم معارضة الملك ليوبولد فى احتلال منطقة (حاجز اللادو) بالايجار حسب نصوص المعاهدة الانجليزية البلجيكية فى ١٢ مايو ١٨٩٤ م . وبمقتضى اتفاق آخر فى ٥ فبراير ١٨٩٥ فى باريس اعترفت الكونغو لفرنسا بحق الاتفاق على الأملاك البلجيكية فى حالة التنازل عن هذه الأملاك للغير علاوة على انها تعهدت فى الوقت نفسه بعدم التنازل للغير دون مقابل عن كل أو جزء من املاكها هذه اى ولاية الكونغو الحرة البلجيكية - وذلك لمناسبة انتقال ولاية الكونغو الحرة إلى دولة بلجيكا فى ٩ يناير ١٨٩٥ . »

اما المعاهدة الانجليزية البلجيكية فى ١٢ مايو ١٨٩٤ فهى التى خلقت ما صار يعرف باسم حاجز اللادو "Lado Enclave" ويمضى الدكتور ليختم بحثه بتلخيص بسيط لنتائج كل تلك الاتفاقات التى تأثر بها السودان فى اقليمى بحر الغزال وبحر الجبل وكان يتأثر بها شمالا فى النيل عند ملتقاه بنهر سوباط لولا أن الصدف هى التى جعلت الفتح الثنائى بقيادة كتشنر قد جاءت فى نفس توقيت الزحف الفرنسى واحتلال (فشوده) وقصة مفاوضات (كتشنر - مارشان) المعروفه فى ١٨٩٨

وقد نقل الدكتور شكرى تلخيصه عن (ارثر سلفيا هوابت) الذى قال :-
« ان الأثر المجتمع من كل هذه الترتيبات انما هو اعطاء ولاية الكونغو الحرة منفذا على النيل الأعلى بين ما هاجى على بحيرة البرت واللادو بموجب ايجار (عقد حكر) يستمر طوال حياة الملك ليوبولد على أن ينتهى العمل بهذا الايجار بعد ذلك الا فيما يخص المنطقة التى تبلغ مساحتها ٢٥ كيلو مترا عند ما هاجى . اما بقية الاقليم فقد تركت ضمن دائرة النفوذ البريطانى » .

وفى ١٦ يولية ١٨٩٨ احتل القومندان هنرى منطقة اللادو باسم الكونغو الحرة وفى نفس الوقت احتل القومندان شالتان جبل الرجاف بعد اشتباك مع الأمير عربى دفع الله عامل الخليفة عبد الله على بحر الجبل وانهزم الأمير عربى فانسحب إلى بور بينما واحتل البلجيكيون الرجاف . وفى يونيه١٨٩٨ دعم شالتان احتلاله للرجاف ولم يكن البلجيكيون قد احتلوا منطقة اللادو قبل ذلك . اما الدافع لاحتلال الرجاف فهو حادث فشودة الذى نشأ باحتلال الكولونيل مارشان لها . »

هذا ما أردنا ان ننقله من كتاب (مصر والسودان) للدكتور محمد فؤاد شكرى لما حواه من ذكر لجميع المعاهدات والاتفاقيات بين الدول الاستعمارية التى احتلت افريقيا فى القرن التاسع عشر وبخاصة بين انجلترا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال لصلتهم بالموضوع الذى نؤرخ له .

اما اقتطاع اقليم اللادو لبلجيكا سواء بالايجار او الهبة من بريطانيا فى حين انه لم يكن من املاكها بل من الأملاك الخديوية فانه بموجب اتفاقية

اخرى عقدت بلندن فى ٩ مايو ١٩٠٦ قد اعيد للسودان فى ١٦ يونيه ١٩١٠ اى بعد وفاة الملك ليوبولد بستة اشهر كما نصت المعاهدة الاولى .

وبذلك عادت منطقة الزاندى لبحر الغـزال وكل منطقـة غرب الاستوائية بما فيها العاصمة جوبا وقـد كانت رئاسـة الاستوائية حتى عام ١٩٣٠ فى منجلا وكانت المديرية تسمى «مديرية منجلا» وليس الاستوائية .

الفصل العاشر

بعثات التبشير المسيحى

بعثات التبشير المسيحى

لا يمكن الحديث عن التبشير المسيحى فى بحر الغزال منفصلا ومستقلا عنه فى بقية المديريات الجنوبية وفى السودان الشمالى ايضـا . ولكننا سـنركز فى نهاية هذا الفصل على نشاط التبشير المسيحى فى بحر الغزال بالذات .

قبيل منتصف القرن التاسع عشر او فى عام ١٨٤٦ على التحديد أعلن البابا قريقورى السادس عشر فى الفاتيكان تكوين جهاز رسولى كاثوليكى للتبشير بالدين المسيحى فى وسط أفريقيا الذى يشتمل على السودان الجنوبى ضـمن مناطق يوغندا والكونغو ونيجيريا وغيرها .

وأسرعت بعوث الارساليات إلى أعالى النيل والاستوائية مدفوعة باغراءات الأرض البكر والعقول العذراء لتفهم الرسـالات السـماوية قبل أن يسـبقهم اليها دعاة التبشير بالرسالة الاسلامية المحمدية أو دعاة الرسالة المسـيحية البروتستانتية التى كانت أيضا تتأهب للغزو الأفريقى .

وكان من تخطيط البعـوث الكاثوليكية أن لا تعمـل فى المناطـق التى وجـد الاسلام طريقه إليهـا بل تحتضـن أرض الجنوب وراء السـدود حيث يعيش الناس على الوثنية والعقائد المحلية القبلية وحدها .

وجـاءت البعثة التبشـيرية الأولى حـوالى ١٨٥٠ بقيادة القس « اقناز بوبلتشر » واستطلعوا الأرض حتى قندكرو فى الاستوائية حيث اسـتقر الأب « انجيلو فنكو » ليراود قبيلة الباريه ويبث بينهـم العقيدة ومسـتلزمات الانتساب المسيحى من عمل وسلوك .

وبعثة أخرى استقرت على بعد مائة وخمسين ميلا إلى الشمال مـن جنوب الاستوائية ولكن القسس الذين واجهوا مناخا لم يألفوه ولم يناسب صحتهم قد ماتوا الواحد بعد الآخر بالملاريا والرطوبة وغيرها وتبعا لذلك تعطل العمل التبشيرى فى الاسـتوائية ولكن بعض الرهبان الفـرنسيين دخلوا فى تجـربة القيام بتبشير فى دار الشلك بأعالى النيل عام ١٨٦١ ولكنهم أيضـا لم يلبثوا أن غادروا الاقليم لعدم تناسب الجـو مـع صـحتهم ولأن الشـلك قبيلة ذات طقوس موروثة ومقدسة لا يتحولون عنها بسهولة .

ومضت حقبة سنوات عشر ثم ظهر فى عام ١٨٧١ الاب « دانيلى كومبونى »[١] الذى رأى - فرارا من قسوة الطقس وضعف مقاومة الاوربيين - أن يعيد البعثة الرسولية الكاثوليكية فى اقليم جبال النوبة . ولم تنتعش الدعوة الكاثوليكية فى اعالى النيل بعد انحدار دولة المهدية الاسلامية فى ١٨٩٨ م .

وكانت الدعوة المسيحية ابان المهدية تعمل بطريقة « حكومات المنفى » بالتعبير الحديث برئاسة القاصد الرسولى المطران سوقارو الذى استبدل فى عام ١٨٩٥ بالقس الاب انتونيو روفيقيو ولكن بقدر ما كان المطران سوقارو محبوبا وناجحا من الناحية الاجتماعية مع الناس كان خلفه انتونيو منعزلا وفاشلا فيما يؤدى من عمل لبعده وانطوائه عن الناس .

ومع الحكم الثنائى :

وفى ١٨٩٨ م وعقب انتصار لورد كتشنر مباشرة فى معركة كررى ضد الخليفة عبد الله عاد إلى لندن وحاول جهده أن يستبدل الارساليات التبشيرية النمسوية بارساليات بريطانية محضة فلم ينجح ولكن امبراطور النمسا فرنسيس جوزيف نجح فى إعادة رسل الكنيسة النمساوية[٢] للسودان واستشاط كتشنر غضبا وأعلن الحرب الباردة على مبعوثى النمسا وحرمهم من امتيازات كثيرة كانوا يأملون فى الحصول عليها . وفى عام ١٨٩٩ وصل إلى الخرطوم الأب اوهلو الدر الذى كان معتقلا بسجن الخليفة لعشر سنوات وهرب إلى مصر عام ١٨٩٣ وأصدر كتابا ضد الخليفة وضد السودان كله اسماه « عشر سنوات فى أسر المهدى » - وصل الخرطوم ليصلح الحال بين الكنيسة والحكام البريطانيين ويعيد إلى منطقة جبال النوبة سابق نفوذ الكنيسة فيها ولكن ما حدث كان خيبة أمل للأب ولكنيسته لان الحكومة حددت اقامته بالخرطوم ثم اعادته إلى بودابست من غير تحقيق لأى غرض أو هدف .

وبعد وفاة البشوب رفيقيو عام ١٩٠٣ حل محله البشوب « فرانزاكس جير » وكان رجلا زكيا وحصيفا استطاع ان يكسب ود السير ونجت باشا

(١) اطلق اسمه على مدارس كمبونى الكاثوليكية تخليدا لذكراه

(٢) كانت الكنيسة النمساوية تعمل فى الخرطوم والجبال إبان الحكم المصرى الاول وحتى مقتل غردون .

ومن معه من الانجليز بسرعة وان يفتح للنشاط الكاثوليكى مجالا جديدا فى جنوب السودان .

وفيما يختص بتبشير الكنيسة الانجليزية على المذهب البروتستانتى لابد ان نعود إلى الوراء قليلا لنذكر ان الجنرال غردون الذى كان حاكم الاقليم الجنوبى قد شجع البعثة الانجليزية الدينية فى عام ١٨٧٨ م ان تؤسس كنائس انجليزية على شواطىء اعالى النيل عندما كانت فى طريقها إلى يوغندا وقد ابطأت الكنيسة الانجليزية فى تلبية طلب غردون باشا رغم إلحاحه وعرضه لشتى المساعدات للكنيسة . ويبدو ان اكبر مساعدة أو مساهمة من غردون باشا فيما بعد قد كانت قتل غردون نفسه على يد المهدى فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ م اذ لم تمض اسابيع على ذلك الحدث الذى هز ارجاء بريطانيا حتى اجتمع عدد ضخم من سراة الانجليز ووضعوا بضعة آلاف من الجنيهات فى يد الكنيسة الانجليزية لتنشىء مؤسسات دينية تبشيرية فى السودان على ذكرى الجنرال تشارلس غردون باشا متى انتهت سيطرة المهدية على السودان . وفى هذا التخطيط تهمة لبريطانيا بالنية المبيتة لاحتلال السودان فيما بعد .

ومن الواضح ان المتبرعين من الانجليز قد اقدموا على تبرعاتهم بدافع من الرغبة فى هداية شعب عنيد وعنيف ومتعصب دينيا لدرجة البطش والفتك حتى بالذين جاءوا لينشروا بينهم الحضارة والوعى الانسانى والسلوك البشرى الصحيح مثل غردون باشا . ونسوا أن ثورة المهدية التى اتخذت الدعوة الدينية اساسا قد كانت من ناحية اخرى ثورة وطنية تريد استقلال بلادها وجلاء الحكم الأجنبى بدليل أن المهدى فى منشوراته مع غردون باشا قد نصحه بأن يغادر البلاد وكفل له كل اسباب السلامة[١] ولكن غردون باشا قد استهان بأمر المهدى وأمر الدعوة الاسلامية كلها فلقى المصير المحتوم .

وكان مقتل الجنرال غردون فى الخرطوم على يد ثورة دينية اسلامية بمثابة الشرارة الأولى التى الهبت نار النشاط المستعر فى الكنيسة الانجليزية فبدأت بارسال بعثة يرأسها الميجور جنرال هيج إلى سواكن التى لم تسقط فى يد المهدى ليستطلع ويقرر ما اذا كان من الممكن القيام بتبشير مسيحى بروتستانتى فى الميناء المحصنة « سواكن » كذكرى لمقتل غردون باشا . ولكن

(١) منشورات الامام المهدى للجنرال غردون من الابيض

البعثة لم تجد سبيلا لقبول الفكرة فى بلدة صغيرة يحاصرها عثمان دقنة من كل الجهات ما عدا البحر وسكانها جميعا مسلمون متعصبون بنفس مستوى الانصار ولكنهم يتبعون قيادة دينية أخرى(١).

لم تكد المهدية تسقط فى يد اللورد كتشنر فى الثالث من سبتمبر ١٨٩٨ حتى وصلت تعليمات من لندن للدكتور هارير مدير الكنيسة الانجليزية فى مصر لاستطلاع الأحوال فى الخرطوم وايجاد الوسائل التى يفتتح بها مركز تبشير مسيحى على ذكرى الجنرال غردون فى الخرطوم.

ولكن الدكتور هارير الذى كان اقرب لمسارح الاحداث قد طرح الأمر أمام اللورد كرومر مندوب بريطانيا السامى لمصر والسودان الذى استشار لورد كتشنر ثم قرر رفض طلب الكنيسة فى السودان وقد كان اللورد كتشنر أكثر عنادا فى رفض اى تبشير بين القبائل والمجموعات المسلمة لان ذلك يؤكد للناس أن الحكومة قد فتحت السودان لتحول الناس عن دينهم إلى العقيدة المسيحية.

ولم يمانع كرومر وكتشنر فى اقامة مراكز التبشير بالجنوب الوثنى الذى يستحق خدمات الكنيسة العقائدية والانسانية ووافقت لجنة الكنيسة العليا فى بريطانيا على العمل فى الجنوب ولكن بغير تحمس واندفاع فأنشىء المركز التبشيرى فى «فشوده»(٢) باعتبار أنها أقرب المناطق الوثنية للمناطق الاسلامية.

ومع ذلك فان جمعية الارساليات الانجليزية لم تكف عن السعى والالحاح لاقامة مراكز بشمال السودان لانه يمثل المكان المناسب لذكرى غردون.

واجتمعت لجنة الكنيسة العليا فى فبراير ١٨٩٩ برئاسة السير جون كناواى فى «كنتربارى» واتخذت قرارات كان تنفيذها حملة عارمة على اللورد كرومر ولورد كتشنر ووزارة الخارجية لعرقلة انتشار رسالة الكنيسة ومقاومة الحرية الدينية باسم السياسة وتملق الشعوب المختلفة.

وقد كانت الملكة فكتوريا وبلاطها ومعظم اللوردات يساندون الكنيسة من وراء ستار ولكن كرومر العنيد الجبار لم يأبه لذلك لأن الاستقرار لم يحدث

(١) الارتيقة وقبائل البجه يتبعون الطريقة الختمية وقد رفض السيد محمد عثمان المرغنى مبايعة المهدية وهاجر إلى مصر.

(٢) اسمها الآن «كدوك» وكانت عاصمة أعالى النيل فى الحكم المصرى الأول والمهدية وحقبة من الحكم الثنائى ثم نقلت العاصمة لملكال على الضفة الشرقية.

بالسودان والخليفة عبد الله وجيوب المهدية لم يمكن الخلاص منها الا بعد موقعة أم دبيكرات فى نوفمبر ١٨٩٩.

ومع يأس الكنيسة من اقناع اللورد كرومر سنحت فرصة اعلان كتشنر بأن السودان مفتوح للتجارة الخارجية فتقدمت الارساليات الانجليزية بطلب لاقامة «مستشفى انجليزى»(١) فى موقع مناسب بالخرطوم ليعالج المرضى الفقراء على اعتبار ان العلاج لا يعتبر تبشيرا أو تدخلا من الانجليز فى عقائد المسلمين وقد يعتبر المستشفى مؤسسة ذات صبغة تجارية وانسانية معا.

وبعد مقتل الخليفة وقبيل تخلى اللورد كتشنر عن مركزه بالسودان ليلتحق بحرب البوير فى جنوب افريقيا سمح للارساليات المسيحية ان تجتمع معه بالخرطوم بشرط ان لا يطمعوا فى قيام تبشير فى ارض اسلامية بالسودان لأن ذلك ينزع الثقة من الحكومة والحاكمين. ولم يمض وقت طويل حتى وصل الخرطوم «الدكتور هارير» الذى تحدثنا عنه والأب «لويلين قوين» ولم يتأخر البشوب «روفيقيو» طويلا عن اللحاق بهما.

وجاء السير ريجنلد ونجت باشا Regnold Wingate:

وانتهى عهد كتشنر القصير وتولى حكم السودان السير رجنلد ونجت باشا منذ نهاية ١٨٩٩ فاستبشرت الكنيسة الانجليزية بونجت لانه مسيحى ملتزم ومن اعضاء الكنيسة هو وأباؤه وكذلك كان كل كبار الاداريين والموظفين الانجليز فى السودان من اتباع المذهب البرتستانتى ماعدا السير سلاطين باشا والسير ادجار برنارد السكرتير المالى **فقد كانا من اتباع المذهب الكاثوليكى.**

ولكن السير ونجت باشا الذى بحث أمر التبشير مع مديرى المديريات الشمالية والجنوبية كتب لرئاسة الارساليات المسيحية يقول:

« اننى فى هذه البلاد أعمل ممثلا لجلالة ملكة بريطانيا وخديوى مصر وواجباتى الرسمية تتمثل فى صيانة الأمن وتجنب ما يؤدى إلى زعزعته والمحافظة على التوازن والعدالة بين سكان القطر بصرف النظر عن معتقداتهم الاسلامية والمسيحية».

(١) المستشفى الانجليزى الواقع شمال قبة الشيخ دفع الله بام درمان ويسمى الآن مستشفى التجانى الماحى

وتأييدا لموقف السير ونجت باشا من التبشير فى السودان اعلن اللورد سالسبرى رئيس وزراء بريطانيا فى يونيه ١٩٠٠ بيانا يساند حكومة السودان فى سياستها ويحذر الكنيسة من محاولة التبشير فى اى مجتمع اسلامى فى السودان لان نجاح ارتداد المسلم عن عقيدته لا يحدث الا بنسبة ضئيلة جدا أما احتمال حدوث رد الفعل على الأمن والسلام فسيكون كبيرا وخطيرا وبخاصة لأن السودان محكوم بدولتين احداهما اسلامية وهى مصر وأى نشاط ضد عقيدة المسلمين فى السودان سوف يواجه بزوابع من المقاومة لا تؤمن عواقبها فى مصر والسودان .

وقد آثار بيان رئيس حكومة بريطانيا ثائرة الكنيسة هنا وفى لندن فكتب البيشوب قوين محتجا :

« ان للسلطات الحق ان توجه التبشير فى اى مكان للطريقة المثلى التى يجب ان تتخذ لتفادى العنف ومحاولات الاقناع بغير الوسائل الحكيمة . ولكن ما حدث من اللورد كرومر اثناء زيارته الأخيرة للسودان من اعلان للناس بأنه لا يمكن قيام تبشير مسيحى هنا ـ وما حدث من اللورد سالسبورى الذى جعل كل همه ان يحذرنا من التبشير وان نبتعد عن مباشرته فى السودان خوفا ورعبا من فئات قليلة متعصبة للاسلام فى مصر وهى تود لو امكنها ان تقذف بالحكم البريطانى إلى البحر بقدر ما تقذف بالارساليات المسيحية إلى الجحيم ـ هذا الذى حدث منهما غير كريم وغير رشيد .

« ان اللورد كرومر يعلم بأننا نسير فى طريقنا إلى الوثنيين لنرشدهم إلى دور يلعبه اللورد لوقف مسيرتنا سيرتد فى يوم من الايام خزيا وعارا على بريطانيا . واذا كان اللورد ورئيسه وغيرهم يظنون ان الاستعمار وحسن الادارة وحدهما سيرفعان السودان واهله من وحدتهم فانهم جميعا مخطئون » .

هذا مثال بسيط للنزاع الذى احتدم بين حكومة لندن والسودان من جانب وبين رئاسة الكنيسة الانجليزية فى لندن والبشون قوين مندوبهم لأفريقيا من الجانب الآخر .

ومع هذا الموقف المتشدد من السير ونجت ضد التبشير فانه قد اباح لكل الارساليات التبشيرية المسيحية العمل بيد مطلقة فى اى اقليم غير اسلامى . ولأن بعثات التبشير متعددة فقد قسم السير ونجت جنوب السودان إلى مناطق نفوذ بالنسبة للتبشير كما سن لهم قانونا وشروطا سنذكرها هنا .

مناطق النفوذ :

(١) بعثة الكنيسة الكاثوليكية النمساوية ـ منحت المنطقة الواقعة غرب النيل الأبيض وتشتمل على مناطق الشلك وبحر الغزال بما فيه من اقاليم غرب النوير .

(٢) البعثة الامريكية التبشيرية ـ منحت منطقة شرق اعالى النيل وشواطىء نهر سوباط ووادى الزراف .

(٣) الجمعية الانجليكانية المسيحية ـ منحت منطقة بحر الجبل ومنطقة ما بين حدود الكنيسة النمساوية والأمريكانية .

وهناك منطقة اقليم اللادو التى اعيدت للادارة السودانية فى عام ١٩١٠ فقد طلب كل من الانجليز والنمساويين اضافتها اليهم ولكن السير ونجت الذى اقتنع بنشاط النمساويين قد منحهم المنطقة الجديدة البكر وعوض الجمعية الانجليكانية باضافة اقليم كبير فى دار الزاندى يضاف الى مناطق نفوذهم التبشيرى .

وفى نفس الوقت وافق ونجت باشا على إعادة فتح كنيسة الدلنج فى جبال النوبة بواسطة الكنيسة النمساوية التى كانت تمارس العمل فيها قبل المهدية التى قفلتها واعتقلت اعضاءها وبينهم الاب اوهلواردر الذى اشرنا اليه من قبل . ولكن الدلنج التى تحيط بها البيئات الاسلامية العربية من جهات عدة لم تصلح لمدى طويل كقاعدة تبشير مسيحى فتحركت البعثات الارسالية نفسها إلى اعمال منطقة الجبال فى اقليم كادوقلى والمورو وهيبان وكوده وعبرى.

ومع ان الحكومة قد اباحت التبشير المسيحى فى جنوب السودان للارساليات الانجليزية والأمريكية والنمساوية كما ذكرنا ـ فانها بتوصية من اللورد كرومر فى ديسمبر ١٩٠٤ قد وضعت شروطا الزمت جميع الكنائس باتباعها وجعلت مخالفة تلك الشروط عذرا بوقف نشاط الارسالية التى ترتكبها والشروط هى :

١ ـ غير مسموح لأى بعثة تبشيرية ان تمارس عملها شمال خط عرض ١٠

٢ ـ فى الاقليم الجنوبى يكون توزيع مناطق النفوذ كالآتى :(١)

(أ) البعثة المسيحية الانجليزية

منطقة بحر الجبل وهى تمتد إلى الحدود مع الكنغو الحره ويوغندا .

(ب) البعثة المسيحية النمساوية الكاثوليكية

اقليم الشلك وكل اقليم بحر الغزال ممتدا إلى منطقة اندوروما على وادى نهر الكنغو .

(ج) البعثة المسيحية الامريكية

كل مناطق نهر سوباط حتى حدود اثيوبيا ثم وادى نهر الزراف .

٣ ـ قد سمح للبعثات المسيحية بدخول السودان والعمل فيه تحت الشروط الآتية :

(أ) كل اعضاء الكنائس يجب ان يخضعوا للنظم والقوانين التى تصدرها الحكومة .

(ب) كل بعثة او إرسالية تعتبر وحدة قائمة بذاتها وتخضع لرئيسها المحلى فى السودان .

(جـ) كل رؤساء واعضاء البعثات المسيحية سيعملون بتصديق وتوصية من حاكم عام السودان وبتوافق مع لوائح السلطات المحلية التى تمثل الحكومة فى المديريات والمراكز .

٤ ـ يمكن للبعثات المسيحية التبشيرية أن تمتلك ارض حكومية لأغراض التبشير الدينى ورسالة البعثة على أساس الشروط الآتية .

تسجل الأرض بالحكر لمدة ثمانين عاما بثمن إسمى هو واحد جنيه عن كل الأرض ـ والتسجيل قابل للتجديد ما لم يكن هناك اخلال من جانب المحتكر بشروط الامتلاك الاحتكارى .

(١) كررنا ذكر مناطق النفوذ لانها هنا جاءت جزءا من قانون اللورد كرومر عام ١٩٠٤ وشروطه للنشاط المسيحى .

٥ ـ لا يسمح للبعثات الدينية المسيحية بالتجارة ولكن هذا الشرط لا يمنع القيام بعملية القايضة بالسلع مع الأهالى اذا كان للكنيسة نتاج زراعى او صناعى يصلح للمبادلة بسلع اخرى(١).

٦ ـ لا يسمح لرجال الكنيسة ان يعملوا كوسطاء بين الحكومة والأهالى ولا يحملوا شكاواهم إلى جهات الاختصاص ولا يقترحوا عمل اشياء نيابة عن سكان المنطقة(٢).

وفى بحر الغزال بالذات :

لم تكن سلطات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى رئاستها لدى البابا وفى السودان راضية عن نظام تحديد مناطق النفوذ التبشيرى وقد كافحت لاطلاق يدها حرة فى بث الدعوة المسيحية بين الوثنيين .

ومع ذلك فان الكاثوليك كانوا سابقين لغيرهم من البعثات المسيحية فى انشاء كنائس ومراكز تبشير إذ اقاموا فى عام ١٩٠٠ اول كنيسة فى منطقة الشلك فى (لول) . وبعد وفاة الأب (روفيجيو) عين الأب (جيير) وهو رجل متفتح الذهن وواسع الأفق فخطط لبناء كنائس فى بحر الغزال .

والواقع ان فكرة انشاء مركز مسيحى فى بحر الغزال قد طرحت عام ١٩٠٣ بواسطة الكابتن استاك(٣) بعد أن نجح فى حملة تاديب الدينكا اقار بين شامبى ورمبيك التى ذكرناها فى مكان آخر .

وقرر الأب جيير أن يشيد اول كنيسة كاثوليكية فى (كاينقو) منطقة (القولو) على بعد خمس وثلاثين ميلا شمال غرب واو ثم كنيسة (امبيلى) بمنطقة (الجور) على بعد ثمانى عشر ميلا إلى الجنوب الشرقى من واو بطريقة التونج وبالقرب من قرية (دود اكوت) زعيم قبيلة الجور فى عام ١٩٠٣ .

وفى عام ١٩٠٥ عاد الأب «جيير» إلى واو ليجد ان ميجور باولنويز مدير بحر الغزال قد شيد فى واو مدرسة صناعية لتدريب الأولاد على الصناعات المحلية والنجارة والبناء ولكن المدرسة ـ على خلاف ما ارادت البعثة المسيحية ـ قد امتلات بأبناء جنود الوحدات العسكرية السودانيين وأبناء

(١) هذا البند لم يطبق عمليا (٢) وهذا ايضا لم يطبق عمليا

(٣) السير لى استاك باشا الذى صار حاكما عاما للسودان ١٩١٦ إلى ١٩٢٤ وقتل فى

القاهرة فى نوفمبر ١٩٢٤

جنود الرديف والجلابة من المسلمين . وترامى الخبر إلى ونجت باشا ف الخرطوم فأمر الأب (جيير) باستلام المدرسة لتديرها الكنيسة وتجعلها بقدر الامكان وقفا على ابناء الوثنيين من المواطنين ليسهل تحويلهم إلى العقيدة المسيحية وليعلموا اللغة الانجليزية بدلا من العربية التى سادت انذاك .

وف عام ١٩٠٦ - وبعد استتباب الأمر للحكومة ف دار الزاندى . افتتح البيشوب (جيير) مركزا للتبشير ف طمبره ولكنه بمرور الزمن ثبت ان نجاح تلك الارساليات كان ضئيلا جدا وبخاصة بالنسبة للكاثوليك لان الجور تمردوا عليهم ف « امبيلى » وف « كيانقو » حيث وصل الامر إلى مرحلة العداء مع قبيلة القولو وزعيمهم الذى اتهم بمحاولة اغتيال احد القسس الاجانب . ونفس الفشل بالنسبة للكاثوليك قد حدث ف اعالى النيل حيث ناصبهم رث الشلك العداء بصورة مكشوفة اضطرت الحكومة للتدخل بين الكنيسة والاهالى . ولكن القسس الذين تمرسوا على الصبر واحتمال المعاناة لاتمام رسالتهم لم يفت ف عضدهم كل ما حدث ومضوا ف طريقهم من غير يأس او ضجر .

وظلت منطقة الزاندى ذات اهمية خاصة للكاثوليك ولكنهم لم يتغلبوا على الصعاب التى اعترضتهم ففتحوا مراكز تبشير وكنائس ف منطقة ركتا وبامبيو بسبب الصراع مع البيشوب « قوين » رئيس الكنيسة الانجليزية التى نافست الكاثوليك بشراسة ف الزاندى وف الاقليم الذى تسلم مؤخرا من البلجيك للسودان وهو (اللادو) ف عام ١٩١٠ .

وبينما كانت كنائس الكاثوليك تتساقط فشلا الواحدة بعد الاخرى ف بحر الغزال كانت الارسالية الامريكانية تعمل ف صمت وتؤده وصبر ف منطقة شرق النيل وسوباط مركزة على نجاح المركز التبشيرى ف « دوليب جعل » جوب ملكال ومتخذة منه مركز اشعاع للمناطق الاخرى .

الارساليات المسيحية والتعليم :

كان التعليم ف المديريات الجنوبية حتى عام ١٩٢٦ تحت اشراف الارساليات المسيحية . وقد خشيت الحكومة ان تتحمل مسئولية التعليم ف الجنوب لسببين احدهما واهمهما هو عجز الحكومة المادى عن نفقات التعليم والثانى هو خشية الحكومة من نفوذ الاسلام بين الوثنيين اذ لا يمكن ان

تتجاهل ضرورة التعليم الدينى الاسلامى لان مصر شريكة ف الحكم الثنائى ولان مناهج التعليم ف بداية الحكم الثنائى كانت كلها بيد المصريين وحدهم .

وبذلك فقد اغدقت الحكومة على الارساليات التبشيرية بكل انواع التشجيع والعون والمساندة لتفتح المدارس الاولية ومدارس التدريب الصناعى وبدأت بعثة الارسالية الكاثوليكية النمساوية بفتح أربع مدارس ف مديرية بحر الغزال واثنين ف اعالى النيل .

اما الكنيسة الانجليزية فقد افتتحت أول مدرسة لها ف « ماليك » جنوب بور ببضعة اميال ف عام ١٩٠٦ ثم افتتحت مدرسة اخرى ف بور عام ١٩١٥ ومن ناحية اخرى فقد قام المبشرون الامريكيون بفتح مدرسة « دوليب هل » جنوب ملكال ف عام ١٩٠٢ .

ومن حيث التقويم العام فان التقارير الحكومية اثبتت أن مدارس الكاثوليك ف بحر الغزال وأعالى النيل هى الوحيدة التى سارت على مناهج تعليمية مقبولة وناجحة وبذلك صار مدرسوها تابعين لمصلحة المعارف من حيث مرتباتهم ونفقاتهم الاخرى .

وف تقرير عن التعليم حدد مدير مديرية بحر الغزال اهداف الحكومة من التعليم ف هذه الفقرة :

« لا تريد الحكومة أن تزيد عدد المسلمين ولكنها تود أن يكتسب السكان تدريبا مهنيا مدرسيا عن طريق لغتهم المحلية مع تعليم اللغة الانجليزية ولن تقحم المسلمين على تعليم مسيحى ف المدارس الا برضاء اولياء امور الاطفال عن ذلك[1] » (ومدربة) ف بحر الغزال التى كانت هدفا من اهداف بلجيكا الاستعمارية وبخاصة منطقة الزاندى .

وعندما تم جلاء القوات البلجيكية عن منطقة اللادو وبعد وفاة الملك ليوبولد الثانى ف عام ١٩١٠ خلا الجو للبعثات الارسالية ف المديرية الاستوائية وبحر الغزال بترحيل كثير من الجنود المصريين والشماليين إلى شمال السودان واعيد تكوين الاورطة الاستوائية بتجنيد كثير من ابناء المديريتين .

ومن ذلك التاريخ ايضا اعادت حكومة السودان « الانجليز » النظر ف رسم سياسة خاصة بالجنوب روعى فيها تحويل كل الوثنيين إلى العقيدة

(١) من كتاب « السودان تحت ونجت » صفحة ١٢١ للمؤرخ جبريل وار بيرج

المسيحية . وقد انتهزت الحكومة فرصة توتر العلاقات بالرواسب القديمة بين الشماليين وقبائل الجنوب والتى تكونت عبر الزمان من الحكم التركى المصرى القديم إلى حكم المهدية وقسوة المعاملة التى وجدها الجنوبيون فى العهدين ـ انتهزت الفرصة لتنتهج سياسة انفصالية عن الشمال بقدر الامكان بدعوى حماية الجنوب من تغول الشمال .

وبما أن اللغة العربية كانت فى بداية الحكم الثنائى بمثابة اللغة الرسمية المستعملة للمكاتبات وللمخاطبات فان مهمة تحويل المواطنين عن الاتجاه العربى كانت عسيرة على البعثات المسيحية ومدارس التبشير فى بحر الغزال بالذات ولذلك فان ونجت باشا حاكم السودان العام الذى ادرك تلك الحقيقة قد امر على الفور باعتبار اللغة الانجليزية شبه رسمية وضرورة توسيع تعليمها فى كل المدارس وتعميم التخاطب بالانجليزية حيثما كان ذلك ممكنا على أن لا يعلن عن ذلك ولا تسلط عليه الأضواء خشية من مقاومة مصر والمصريين المشتركين أنذاك فى الحكم معهم .

ولكى يزيد ترسيخ الدعوة المسيحية فى أذهان المواطنين الوثنيين فقد أمر السير ونجت باشا بأن تكون العطلة الأسبوعية فى يوم الأحد بدلا من يوم الجمعة بالنسبة لمديريتى بحر الغزال ومنقلا .

وقد جاء فى تبرير السير ونجت باشا للعطلة وتعميم الانجليزية قوله بالحرف :

« يجب علينا أن لا ننسى بأن الأغلبية المطلقة لسكان مديريتى بحر الغزال ومنقلا ليسو بمسلمين وان جيرانهم فى يوغندا قد تقبلوا العقيدة المسيحية من غير تردد وبدون قيام عقبات . كما أن اللغة الانجليزية أسهل بكثير فى تعلمها من اللغة العربية » .

ومن الأسباب التى وقفت عقبة فى تقدم البعثات الارسالية فى بداية الحكم الثنائى ببحر الغزال وجود الوحدات العسكرية المصرية والسودانية الشمالية بواو ومراكز المديرية الأخرى لأن المناوشات بين حكومة السودان والبلچيك فى الكنغو ومنطقة اللادو كانت تستدعى وجود قوات مسلحة .

وأخيرا يجب أن نتذكر بأن هذه النبذة عن التبشير المسيحى لم تشمل ذكر كل البعثات المسيحية والرواد الأوائل من الأمريكيين والألمان والنمساويين الذين غامروا فى المناطق الاستوائية وقد مات كثير منهم برداءة الجو والملاريا وغيرهما .

الفصل الحادى عشر

قبائل بحر الغزال

قبائل بحر الغزال

ليس من اختصــاص هــذا الكتاب أن يتوغل في تفــاصيل سرد قبائل بحــر الغزال وعلاقاتها وخصوماتها مع بعضها البعض ، ولكنه ـ أى الكتاب ـ قــد اقتصر على تسجيل الأحداث الهامة التى تطــور بهــا الاقليم مــن حــال إلى احوال أخرى عبر المراحل التاريخية التى تعــاقبت عليه منذ أن بدأ النشــاط الاستعمارى والتبشيرى في أفريقيا السوداء .

والاقليم بحدوده الجغرافية حسبما جاء في مقدمة الكتاب هو مــديرية بحــر الغزال القديمة قبل أن تقتطع منها منطقة الزاندى في عام ١٩٣٥ وتضــم إلى المديرية الاستوائية وبطبيعة الحال ـ قبل التقسيم الحديث الذى قامت به ثورة مايو فجعلت الاقليم مديريتين هما بحر الغزال والبحيرات .

ولهذا فان القبائل التى نذكرها هنا تمثل مــديرية بحــر الغــزال قبل عام ١٩٣٥ . وأرجو أن لا يغيب عن الأذهان أن القبائل الكبيرة تنقسم في العــادة كما هو الحال في شمال السودان أيضا إلى قبائل فرعية كبيرة وإننا هنا قــد اقتصرنا جهــدنا على أن نســجل القبائل ذات الكيان المعــروف والتى غالبا ما يكون منها زعماؤها وقوادها وحكامها الذين يمثلون القبيلة بكل فــروعها الصغرى .

ولأن كثيرا من القبائل الكبيرة قد ورد ذكرها في الكتاب ملتصــقا بأحــداث كبيرة كالثورات والحروب أو الولاء والتحالف ـ فــاننا ـ ســنكتفى هنا بذكر القبيلة ومنطقتها الجغــرافية ولن نذهــب إلى أكثر مــن ذلك إلا إذا اقتضــت الضرورة أن نورد شيئا لسبب أو آخر .

منطقتها الجغرافية

القبيلة

الدينكا : تعتبر في عمومها أكبر القبائل عددا وقوة وثراء وتحتل كل شرق المديرية وجنوبها وجزء مــن وســطها . ويكونون عددا مــن القبائل الفرعية .

الزاندى : اكبر قبيلة بعد الدينكا ، واكثرها ولعا بالحروب ولها تاريخ مع الاستعمار البلجيكى والفرنسى والانجليزى والمهدية ومناطقها كل جنوب المديرية فى حدود مع الكونغو والاستوائية وكل الجنوب الغربى فى حدود افريقيا الوسطى وغرب بحر الغزال .

الجور : ويسمى باسمهم نهر الجور ولهم علاقات عنصرية مع الشلك ومع بعض قبائل كينيا ومناطقهم مع الدينكا ملوال والشرق ووسط المديرية .

البنقو : قبيلة صغيرة نسبيا وتسكن منطقة التونج وبعضهم بغرب بحر الغزال .

بلاندا : قبيلة كبيرة نسبيا وقد تعرضوا لأذى كثير جدا من سلاطين الزاندى الذين استعبدوا الاقليات قبل بداية القرن العشرين ويسكنون بين واو وامبورو شرق ديم زبير وبين نهر بور برى جنوب واو وبالقرب من الزاندى .

قولو : من قبائل واو وتقع دار القبيلة غرب واو مباشرة بطريق راجا وبها كنيسة كيانقو الشهيرة الكاثوليكية .

اندقو : من قبائل ضواحى العاصمة ايضا وتسكن غرب قبيلة القولو مباشرة .

شيرى أو سيرى: يختلف النطق المحلى بين السين والشين ـ وتنقسم القبيلة الى منطقتين إحداهما بالقرب من واو والمنطقة الثانية على نهر ينقو بطريق راجا .

تاقبو : منطقتهم بالقرب من امبورو (مع اندقو)

باى أو بارى : يختلف النطق المحلى ـ وتسكن القبيلة غرب نهر بونقو على طريق راجا إلى الغرب .

انديرى : تسكن القبيلة شرق راجا .

توقويو : يسكنون مع الفروقى وانقلقلى ـ منطقة راجا .

فروقى : يسكنون منطقة راجا ـ خور شمام .

انقلقلى : يسكنون الشمال الشرقى من قبيلة باندالا .

مانقايا : يسكنون على بضعة اميال جنوب راجا .

مندالا أو بندالا : يسكنون شرق منطقة فروقية .

دانقو : هذه قبيلة تسكن اتجاه الردوم بدارفور .

كريش (حفرة) : يسكنون منطقة ناكا شرقا .

كريش (اندقو) : يسكنون غرب راجا .

كريس (ناكا) : يسكنون على بعد كبير غرب راجا .

دورو او اورو : يسكنون منطقة نهر كورو .

اجا : يسكنون غرب كريش اندقو .

بنقا : يسكنون بجوار كريش حفرة الى الشرق .

كارا : سكانهم شرق بيدا .

يولو : سكانهم شرق الكارا .

بندا : يسكنون بين ديم زبير وراجا .



مراجع الكتاب

١ ـ مكتبة المجلس البريطانى بالخرطوم ولندن .
٢ ـ أوراق ونجت باشا بجامعة درهام ببريطانيا .
٣ ـ دار الوثائق الانجليزية بلندن .
٤ ـ مكتبة جامعة اكسفورد ببريطانيا .
٥ ـ « مصر فى السودان » للبروفسور ريتشارد هل .
٦ ـ تاريخ جنوب السودان ١٨٣٩ ـ ١٨٨٩ م (ريتشارد جراى)
٧ ـ مصر والسودان ـ تاريخ وحدة وادى النيل السياسية (الدكتور أحمد فؤاد شكرى)
٨ ـ السودان عبر القرون (للدكتور مكى شبيكة)
٩ ـ تاريخ وجغرافية السودان (نعوم شقير)
١٠ ـ أرض وراء الأنهار (روبرت كولن)
١١ ـ المهدية فى السودان (ارب ثيوبولد)
١٢ ـ السودان الحديث (هولت)
١٣ ـ عصر اسماعيل (عبد الرحمن الرافعى)
١٤ ـ ونجت فى السودان (السير رونالد ونجت)
١٥ ـ المهدية السير (رجنلد ونجت باشا)
١٦ ـ وثائق من مجلات (السودان فى مذكرات ومدونات)
١٧ ـ دار الوثائق المركزية بالخرطوم
١٨ ـ التاريخ القبلى لبحر الغزال ـ سانت اندريا

الشقيقتـــان

كتب سياسية ـ دراسات قومية

صدر من كتب سياسية :

١ ـ دقت اجراس السلام

تاليف : عبد المنعم شميس

٢ ـ السوفييت والشرق الاوسط

تاليف : روبرت اوين فريدمان

٣ ـ فارس السلام

تاليف : عبد المنعم شميس

٤ ـ هؤلاء الرجال العظام ومعركتهم المستحيلة

تاليف : محمد فيصل عبد المنعم

٥ ـ الفكر الديمقراطى والحياة النيابية

تاليف : صلاح زكى

٦ ـ مستقبل الديموقراطية فى مصر

تاليف : د . نبيل راغب

٧ ـ الأثار الاستراتيجية لثورة ايران

تاليف لواء (ا . ح) حسين عدلى عبد اللطيف

وصدر من دراسات قومية :

١ ـ سيناء المستقبل

إعداد المراكز القومية المتخصصة

٢ ـ مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية

للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى

٣ ـ مصر الثورة العرابية

للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى

٤ ـ مائة نتيجة لحرب السادس من اكتوبر

بقلم محمود المصرى

٥ ـ مصر .. البعث الوطنى

للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى

٦ ـ التكامل الاقتصادى

تاليف اسامة غيث

٧ ـ مصربين ثورة ١٩١٩ ـ ١٩٥٢

للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى

٨ ـ الفكر القومى المصرى

د . عبد العزيز شرف

٩ ـ قناة السويس شريان الرخاء فى العالم

محمد فيصل عبد المنعم

سلسلة كتب شهرية — **ثمن النسخة ٢٥ قرشا**



رقم الايداع ٣١١٩ / ١٩٨٠

الترقيم الدولى ٨ـ٠٩ـ٧٢٩٦ـ٩٧٧ ISBN

AL-AHRAM PRESS



تصدر عن
مركز النيل للإعلام
١ شارع دمياط
العجوزة - القاهرة
ت ٨١٣٢٠٨ - ٨١٢٨٦٢

مطابع الأهرام التجارية

٢٥ قرشا